لأنك الله

رحلة إلى السماء السابعة

علي بن جابر الفيفي

دار الحضارة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

الإهـــداء

إلى التي قالت لي ذات ليلة،

وأنا في السابعة من عمري:

هل صليت العِشاء؟

فقلت لها -كاذبًا- نعم!

فنظرت إليّ نظرة شكّ، وقالت: قل ما شئت ..

ولكنّه قد رآك!

فأفزعتني «قد رآك» هذه ..

وجعلتني أنهض لأصلي .. رغم ادعائي الكاذب!

إلى أمّـــي ..

لأنّـــك الـــلـــه .. لا خـــوفٌ ولا قـــلـــقُ

ولا غــروب .. ولا لــيــل .. ولا شــفــقُ

لأنّـك الـلـه .. قـلـبـي كـلّـه أمـلُ

لأنّـك الـلـه .. روحـي مـلـؤهـا الألـقُ

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وصحبه ومن والاه . . وبعد

فهذه كلمات عن بعض أسماء الله، كتبتها بضعفي عن القويّ سبحانه، وبعجزي عن القدير سبحانه، وبجهلي عن العليم سبحانه . .

حرصت أن أجعلها مما يفهمه متوسّط الثقافة، ويستطيع قراءته المريض علىٰ سريره، والحزين بين دموعه، والمحتاج وسط كروبه . .

لديّ يقين أن تعلّق القلب بالله، وعلمه به، ومراقبته له، وحبّه وخوفه ورجاءه، كما أنّه سرّ سعادة الآخرة، فإنّه سر سعادة الدنيا كذلك، وأنّ مرحلة الأحزان والوساوس والكروب ستنتهي تمامًا إن وجّه العبد بوصلة اهتمامه إلىٰ الذي لم يخلقه إلا لعبادته . .

وباب أسماء الله الحسنىٰ باب إيمانيّ عظيم، يدلف العبد من خلاله إلىٰ عالم قدسي خاص، يجعل النفس تسجد تعظيمًا، والروح تتبتّل خشوعًا وحبًّا . .

أردت من هذا الكتاب الدلالة علىٰ الله سبحانه، والإشارة إليهِ بالقليل مما لديهِ، وتذكير نفسي وإخواني بأنّه علىٰ كل شيء قدير، وأن فضله كبير، وأنّه سبحانه السميع البصير . .

وأردت أن أربت بهذه الكلمات علىٰ أكتاف أتعبتها الأوجاع، وأمسح بها علىٰ رؤوس صدّعتها الآلام، أردت أن أواري بأحرفي الدموع، وأن أطفئ لهيب الضلوع . .

إننا بدون معرفة أسماء الله في صحراء تائهون، تتبدد أيامنا في لهيب تلك الصحراء، ودوّامة كثبان القلق النفسي . .

اختر الله: معرفة، وإيمانًا، ويقينًا، وعبادة، وخضوعًا، ثم أنسًا، وسعادة، وهناء . .

أو اختر التيه، والضياع، والاختناق، والشعور بالكآبة، والتمزّق النفسي . .

لا أدّعي في هذا الكتاب إحاطة ولا علمًا ولا سبقًا، الذي أدعيه هو العجز والتقصير والافتقار إلىٰ عفوه سبحانه وتجاوزه . .

فإن كان في هذا الكتاب من خير فأسأل الله أن يشيعه بين الناس، وإن كان غير ذلك فقد علم سبحانه كل التقصير الذي عندي، وقد علمتُ بعض العفو الذي عنده ..

أسأل الله صلاح النيّة، وأن يغفر ما قد يندّ به القلم، أو يخطئ به الفؤاد ..

وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيّدنا محمد .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

علي جابر الفيفي

٢٧/ ٧/ ١٤٣٧هـ

الصَّمد

لا يستطيع العالَم كلّه أن يمسّك بسوء لم يرده الله ..

ولا يستطيع العالَم كله أن يدفع عنك سوءًا قدّره الله ..

الصمد

إذا كان الضعف قد بنىٰ حولك سجنًا ضيقًا لا تستطيع الخروج منه!

إذا حاصرتك الحاجات، وداهمتك الخطوب، والتفّت من حولك الهموم، وأخذت روحك في الهرب إلىٰ المجهول! فأنت ساعتها بحاجة إلىٰ أن تصمد إليه . .

اسم الله «الصمد» سيمدّك بكل ما تحتاجه لتكون قويًا في هذه الحياة، وتجابه واقعك بشموخ، وتتجاوز عقدك بعزيمة!

ابدأ مع الصمد عهدًا جديدًا، ثم ثق أنّ الغد سيكون أفضل من اليوم . . وبكثير!!

■ في ظلال الصّمَدَيّة

الصمد اسم كما ترىٰ بالغ الهيبة، قويّ الحروف، شامخ المعنىٰ، قليل الورود والذكر، ذو جلالة خاصّة.

وكأن الصمود له سبحانه أهم تجليّات الإخلاص في

العبادة، فمَن أكثرَ من استحضار معنىٰ الإخلاص في عباداته، أكسب قلبه صفة الرضوخ إلىٰ مولاه والصمود له وعدم الالتجاء إلاّ إليه.

وها نحن ندلف إلىٰ عالَم الصمديّة لنستلهم شيئًا من معاني الصمد:

الصمد هو من تصمد إليه الخلائق، أي تلجأ إليه، هذا من أجلّ معاني هذا الاسم، لذا فسوف نُطوِّف بهذا المعنىٰ ..

الصمد هو المقصود في الرغائب، المستغاث به عند المصائب، والمفزوع إليه وقت النوائب.

جاء ذكره في سورة من أعظم سُوَر المصحف، ومن أقصرها، وهي سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن الكريم:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾

يحتاج المخلوق إلىٰ نصر فيقول: يا الله ..

يحتاج إلىٰ إعانة فيقول: يا الله ..

يحتاج إلىٰ حفظ فيقول: يا الله ..

يحتاج إلىٰ هداية فيقول: يا الله ..

يحتاج إلىٰ لطف فيقول: يا الله ..

■ أمواج ..

أحاطك بالاحتياجات لتحيط نفسك بأسمائه وصفاته، وهذا معنىٰ الصمديّة.

في كل لحظات حياتك أنت بحاجة إليه، فإن لم ترجع إليه اختيارًا رجعت إليه اضطرارا .

المزارع إذا تأخر وقت الحصاد، وقد تعاظمت حاجته للثمر، وصار الماء شحيحًا، نظر إلىٰ السماء وقال: يا الله!

ركاب السفينة إذا تلاطمت بهم الأمواج، وزعزعت فكرة الموت طمأنينة الحياة في نفوسهم قالوا: يا الله!

إذا أعلن قائد الطائرة أن عجلاتها رفضت التحرّك ولذلك فسيأخذ جولة علىٰ المطار إلىٰ أن تُحل المشكلة، ينسىٰ ركاب الطائرة كل الشخصيات المهمة، ولا يتذكرون إلا الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه.

وعيناك علىٰ رسّام القلب، تنظر إلىٰ تلك الخطوط المتعرّجة ومريضك تخفت أنفاسه، وتتضاءل نبضاته، وتلك الخطوط تأخذ قليلًا قليلًا في الهبوط، لحظتها تنسىٰ اسم الممرضة، ويتبخّر من رأسك وجه الطبيب وتقول في رجاء: يا الله كن معه!

■ أفكار الزيف

جَاءَ شَيْخٌ أَعْرَابِيٌّ اسْمُهُ الحُصَيْنُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **كَمْ تَعْبُدُ يَا حُصَيْنُ؟** فَقَالَ: سَبْعَةٌ، سِتَّةٌ فِي الأَرْضِ وَوَاحِدٌ فِي السَّمَاءِ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **مَنْ لِرَهْبِكَ؟** قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ **مَنْ لِرَغْبِكَ؟** قَالَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **فَاتْرُكْ الَّذِينَ فِي الأَرْضِ وَاعْبُدْ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، فَأَسْلَمَ الحُصَيْنُ**[1]!

لقد اقتنع بسبب معنىٰ الصمديّة، لأن من تصمد إليه وقت الرهبة والرغبة هو وحده من يستحق أن تسجد له!

إن الإيمان أسهل فكرة في الوجود، لا تحتاج إلىٰ كتب، ولا إلىٰ فلسفة، ولا إلىٰ سبر وتقسيم، هي كلمة قلها بإخلاص، ثم اتركها لتشتت أفكار الزيف ..

يختصر القرآن ذلك فيقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾

كلمة «الله» وحدها .. كفيلة بإسكات أكبر أكاذيب الحياة ..

في عمق كل إنسان، وداخل كل خليّة، وحول كل شريان أشياء تعرف الله جيدًا، وتسجد له، وتسبّحه ..

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٨٢٠-١٢/ ٤٥٢).

إن الكافر وهو كافر إذا سمع القرآن يخضع . .

ومن قصص السيرة الشهيرة أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم علىٰ مشركي مكّة في المسجد الحرام، وما إن انتهىٰ حتىٰ سجدوا . . كلّهم سجدوا . . حتىٰ أولئك الذين طردوه وآذوه وخططوا لاغتياله سجدوا!

تلك الأشياء التي في خلاياهم وشرايينهم تفجّرت فيها طاقة إيمانيّة رهيبة فجعلتهم يخرّون للأذقان سجّدًا . .

■ الكواكب

خلق في نفوس عباده حاجة إلىٰ حبّه سبحانه!

هناك نوع من الحب المقدّس في قلوب العباد لا يشبعه إلا الانحناء له، والطواف ببيته، والوقوف بين يديه، والقيام من النوم لأجله، وبذل المهج في سبيله.

الحياة بكل تجلياتها همس يقول لك: الذي تبحث عنه علىٰ عرشه يسمعك ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ . .

امرأة يخلو بها فاجر في إحدىٰ الخلوات فيراودها عن نفسها، ولكنّها تأبىٰ! فيقول حاثّا لها: لا يرانا إلا الكواكب، فتردّ بشموخ: فأين مكوكبها؟

أين الله؟!

إنّه قلب صامد إلىٰ الله، يراقبه، متيقن أنّه عليم خبير سميع بصير محيط!

وصمودك إليه بقلبك تماما كصمود المصلّي إلىٰ الكعبة ليصلي إليها!

هكذا يجب أن يكون القلب، يوزّع رغباته في كل الاتجاهات لكن الاتجاه الأمامي يجب أن يكون لله فقط ..

ضع يمين قلبك ما شئت ويساره ما شئت، ولكن أمامه لا تضع إلا مرضاة الله، إلا مراقبة الله، إلا حب الله.

■ وتنساه ..

إذا بحثت عن شيء فلم تجده فدعه، وانشغل بالله.

هو الذي جعل ذلك الشيء يضيع لتصمد إليه وتلتجئ، لتقول: اللهم ردّ عليّ ضالّتي، فيردّها! يريدك أن تنشغل به عن حاجتك، ولكنّك تنشغل بها، وتنساه!!

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلام بالغ النفاسة في هذا المعنىٰ، فتأمّله بقلبك، ثم اجعله بالقرب من أوجاعك، وكربك، وحاجاتك، يقول:

«العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجته، وتفريج كرباته، فيسعىٰ في ذلك بالسؤال والتضرع، وإن كان ذلك من العبادة والطاعة، ثم يكون في أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب: من الرزق والنصر والعافية مطلقا، ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله ﷻ ومعرفته ومحبته، والتنعم بذكره ودعائه، ما يكون هو أحب إليه وأعظم قدرا عنده من تلك الحاجة التي همته، وهذا من رحمة الله بعباده، يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلىٰ المقاصد العلية الدينية».

تنقطع الأمطار، وتصبح الدنيا قاحلة علىٰ عهد موسىٰ عليه السلام فيخرج هو وقومه وهم آلاف من الرجال والنساء والولدان، فيرىٰ موسىٰ نملة خرجت رافعة يديها إلىٰ السماء صامدة إلىٰ ربّ السحاب، فعلم موسىٰ أن هذا الصمود، وهذا الذل لن يعقبه إلا هطول السماء بماء منهمر، فقال لقومه: ارجعوا فقد كُفيتم،فعادوا علىٰ صوت الرعود، ورذاذ المطر!

في طفولتي كنت أسمع دعاء لأحد القرّاء فيهزني: «اللهم أوقَفْنا مطايانا ببابك .. فلا تطردنا عن جنابك» هذا الإيقاف للمطايا بباب الكريم هو معنىٰ الصمد.

■ اصمد إليه

يجب أن تعلم أنّه لو لم يأذن للدواء أن يؤدّي مفعوله في جسدك لما ارتفع عنك ذلك المرض، فاصمد إليه أن يشفيَك . .

يجب أن توقن أنّه لو لم يصرف تلك السيارة المتهوّرة عنك لكنت الآن في عداد الموتىٰ، فاصمد إليه أن يحفظك . .

يجب أن تتأكد أنّه لو لم يحطك برعايته عندما ركبت البحر، لكنت الآن طُعمًا لأسماك المحيط، فاصمد إليه أن يكون معك . .

ولهذا تصمد إليه لترتاح، ليهدأ لُهاثك، لأنّك بدونه تركض وتلهث وتتوتّر.

أنصت إلىٰ أولئك الذين تعبث بهم سفينة، أو يرون الموت وهو مقبل عليهم، وتعصف بهم رياح التقلّبات سوف تسمعهم بجميع أديانهم يلهجون باسمه: يا الله!

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

جعل في داخلك حاجة لأن تقول اسمه، هناك أمن يعمّ

كيانك إن قلت يا الله، فإذا لم تقلها اختيارًا، قلتها اضطرارًا، وإن لم تذكرها إيمانًا، ذكرتها قهرًا، وإذا لم تكن كلمتك في الرخاء، كانت صرختك في الشدّة!

البوصلة

لماذا ننتظر جائحة تردّنا إليه؟ ومصيبة تذكرنا باسمه؟ وكارثة نعود بها إلىٰ المسجد؟

ألا يستحق أن نخضع ونلتجئ إليه دون جوائح وكوارث ومصائب؟

هل كل ما أعطانا إيّاه من حياة وصحّة وإيمان وأمان وسعادة قليل حتىٰ لا ننكّس رؤوسنا إليه إلا ببليّة تنسينا كل أوهامنا، ولا يبقىٰ في عقولنا معها إلا الله!

عدّل بوصلة قلبك باتّجاهه ثم سر إليه ولو حبوًا علىٰ ركبتيك، ستصل ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾

إذا التجأت لفلان من الناس صباحًا قد يغلق بابه دونك في المساء.

إذا نصرك علىٰ زيد قد لا ينصرك علىٰ عمرو.

إذا أعطاك اليوم فسوف يمنعك في الغد.

أما الله .. فلا!

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ﴾

يعطي بالليل والنهار، ينصرك علىٰ الجميع إن كنت مظلوما، لا يغلق بابه، يده سحاء الليل والنهار، أكرم الأكرمين، لذلك تصمد إليه كل الخلائق، فإذا جرّبت أن تصمد إلىٰ غيره في حاجة رجعت خائبا، ولا بد!

إذا طلبت غيره قد لا يجيبك، أو قد يجيبك ولكن يتأخر في تلبية طلبك، أو يلبيه ولكن ناقصا، أو يلبيه كاملا لكن مع ملعقة إهانة، وقد لا يهينك ولكنّ نفسك تنكسر له ..

■ فرّغ قلبك من غيره

دخلت قديمًا مكتب وكيل إحدىٰ الجامعات وقد كتبت له معروضًا في شأن من شؤون دراستي، ثم شرحت له بعض التفاصيل فقال لي: لا تكثّر (هرْج)!

الناس لا يريدونك أن تكثّر من الهرج! ولكن الله يحبّك إن كثّرت من الهرج بين يديه! فهو يحب العبد اللحوح في الدعاء .. فلماذا تشكو لغيره وتتركه؟

يقول النبي ﷺ لابن عباس: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ»[1] مادام أن هناك حاجة تستحق السؤال؛ فليكن الله هو من تسأله!

أعجبتني مقولة نقلها أبو حامد الغزالي عن أحد العارفين يقول فيها عن اسم الله الأعظم: فرّغ قلبك من غيره ثم ادعه بأي اسم يجبك ..

وهذا فحوىٰ معنىٰ الصمد، اجعل في قلبك الله، ثم قل أي شيء من مرضاته سيكون إلهيّ المسحة، وربّانيّ الصبغة ..

كل عارض يعرض إنّما هو رسالة تقول لك: لديك رب فالتجئ إليه ..

المرض رسالة لتذلّ له ..

والفقر برقيّة لتسجد له ..

والضعف مكالمة تقول لك استجلب القوّة من القويّ ..

الحياة كلّها تصرخ في وجهك: لديك رب، اصمد إليه!

وفي حديث ابن عباس سالف الذكر يقول المصطفىٰ ﷺ: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»[2] أمامك!!

---

(١) أخرجه الترمذي في سنته (٢٥١٦-٤/ ٦٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سنته (٢٥١٦-٤/ ٦٦٧).

احفظه في نفسك وجوارحك وخطراتك، سيكون أمامك بحفظه ومعيّته ونصرته.

الصمد لا تهدأ قلوب خلقه حتىٰ تضع زوّاداتها عند عتبة مُلكه ..

■ خطوات

انظر في أي اتجاه شئت، ولكن اجعل في قلبك عينين لا تنظران إلاّ إلىٰ عظمته!

تحدّث بكل ما تريد، ولكن اجعل في قلبك لسانًا لا ينطق إلا بذكره!

استمع إلىٰ الجميع، ولكن اصنع في قلبك سمعًا لا يدرك إلا كلامه!

امش إلىٰ حيث شئت، ولكن احفر في قلبك خطوات نهايتها عرش الملك!

اصمد إليه بقلبك وروحك وتفكيرك وجسدك وإراداتك وأحلامك وأوهامك ..

إذا أمسكت قلمًا فتساءل: هل يرضىٰ سبحانه عما سأكتبه في هذه الورقة؟

إذا هممت بكلمة تقولها فتساءل: هل سأقول شيئا يرضيه؟

إذا وقفت موقفًا تساءل: هل موقفي هذا محبوب عنده أم لا؟

اصنع منبّها وعلّقه في أعلىٰ قلبك دقاته تقول:

ماذا يريد الله؟ ماذا يريد الله؟ ماذا يريد الله؟

اصمد إليه في كل حين، وإذا ما استيقظت في نصف الليل فتذكّره، خيالاتك سوداء إذا لم تتذكره، عقلك خراب دون أن يمرّ اسمه علىٰ خطراتك، أحلامك مستنقعات فإذا جاء ذكر الحي الذي لا يموت عليها صارت أنهارا وأشجارا وعصافير شادية.

■ شموخ ..

إذا علّمت روحك الصمود إليه، فإنّها مع الزمن ستستحي أن تكثر من الطلبات الدنيويّة لأنّها ليست الحيّز الذي خلقك له، كل آمالك أُخروية ..

قال الخليفة لابن عمر وهو يطوف حول الكعبة سلْني يا ابن عمر، فنظر إليك بشموخ الصامد إلىٰ الله وقال، من أمر الدنيا أم الآخرة؟ فقال أما الآخرة فلله ولكن من شؤون الدنيا، فقال: لم أسأل الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها؟!

الصمود لله يحوّلك إلىٰ عظيم، لا يبالي بمُلاّك التراب ..
الدنيا تخصص لا يقبل عليه الصامدون لله ..

قال أمير لابن تيمية، سمعنا أنّك تريد ملكنا يا ابن تيمية!

فرفع ابن تيمية رأسه بشموخ وقال: والله إن ملكك لا يساوي عندي فلسين!

رجل يعرّض وجهه لله آناء الليل، كيف يذل لقطعة خزف أطراف النهار؟

■ حقيقة ..

اللحظة التي تصمد فيها إليه لأجل حاجتك، هي نفسها اللحظة التي تصبح حاجتك ملك يمينك!

لا عبور لأي رغبة إلا من طريق الله، لا وجود لأي حاجة إلا في ساحة الله، لا إمكانيّة لحدوث شيء إلا بالله، فإنّه وحده الذي لا حول في الوجود ولا قوّة إلا به.

لا يمكن لخليّة أن تتحرّك ولا لذرة أن تكون ولا لقطرة أن تتبخر ولا لورقة شجر أن تسقط إلا بحوله وقوّته!

لا يستطيع العالم كلّه أن يمسّك بسوء لم يرده الله، ولا يستطيع العالم كله أن يدفع عنك سوءًا قدّره الله!

إذن فاجعل وجهك إليه، وألجئ ظهرك إليه، وفوّض أمرك إليه . .

فهو الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . .

اللهم أصمد قلوبنا إليك، واجعلنا لا نطلب غيرك ولا نسأل سواك ولا نستغيث بأحد من خلقك يا الله . .

الحفيظ

نتذكر فائدة مانع الانزلاق ..

وفائدة كابح السرعة ..

وفائدة البالون الواقي ..

وفائدة حزام الأمان ..

وننسى الله!

الحفيظ

إذا شعرت أن حياتك في خطر، أو أن المرض يهدد صحّتك، أو كان ابنك بعيدًا عنك وقد خشيت عليه من الضياع أو رفقاء السوء، أو أن مالك الذي جمعته قد بات قاب قوسين أو أدنىٰ من التبدد والتلف فاعلم أنّك بحاجة إلىٰ أن تعلم أن من أسماء ربّك سبحانه «الحفيظ» وأنّه ينبغي عليك أن تجدد إيمانك بهذا الاسم العظيم، وأنّه قد جاء الوقت المناسب لتتفكّر فيه وتتأمّل . .

فهو وحده من يحفظ حياتك، ويحفظ صحّتك، ويحفظ أبناءك، ويحفظ مالك، ويحفظ كل شيء في هذه الحياة!

■ أيها القلب اطمئنّ ..

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ: «الحفيظ الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أولياءه من وقوعهم في الذنوب والهَلَكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات».

منتهىٰ الحفظ عنده، وغاية الرعاية لديه، وأقصىٰ الطمأنينة ستكون وأنت بمعيّته.

يحفظ عبده؛ لذلك نقول دائمًا: اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي.

إنّك تستحفظ الله جهاتك الستّ، إنّك تطلب منه هالة حفظ تحوطك من جميع الجهات، ولا يقدر علىٰ ذلك إلا هو!

يحفظ سمعك وبصرك، لذلك ندعوه في الصباح والمساء أن: اللهمّ عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري ..

ستفقد الجهاز الذي تستطيع به فهم هذا العالم إن فقدت سمعك وبصرك، ستعيش في عزلة سوداء، ستخنقك الدنيا بصمتها!

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾

الحفيظ هو من يحفظ سمعك، الذي تسمع به الحرام، ولو شاء لأذهبه في لحظة.

ويحفظ بصرك الذي تنظر به للحرام، ولو شاء لأذهبه في لحظة.

يحفظ دينك، لذلك تناجيه في السجود أن: يا مقلّب القلوب والأبصار ثبّت قلبي علىٰ دينك.

■ طرقات الزيغ!

لو لم يثبّت قلبك علىٰ دينه لتناوشتك الشبهات، وتخطّفتك الأهواء!

علماء أفنوا أعمارهم بين الكتب والمحابر لم يرد الله أن يحفظ عقائدهم: فكفروا به سبحانه، وبعضهم صار مبتدعًا في الدين، وأنت بعلمك القليل ما زلت تسجد له؟ لقد حفظ الحفيظ دينك!

عالم اسمه «عبد الله القصيمي» يؤلّف كتابًا يدافع فيه عن دين الله اسمه «الصراع بين الإسلام والوثنيّة» قيل عنه -مبالغة- إنّه دفع به مهر الجنّة! وأُثني عليه من منبر الحرم، ثم بعد ذلك بسنوات تطرق أصابع الزيغ قلبه - والعياذ بالله- وتبدأ الشبهات تنسج حول أفكاره بيوت الشك! ثم تغدو المسلّمات ممكنات، والحقائق آراء، وتحت تلك الشبهات ومن بين أكوام الضلال يمسك قلمه ويؤلف كتابًا يهاجم فيه الإسلام اسمه: «هذي هي الأغلال»، يقول: إن دين الله آصار وأغلال وقيود! نعوذ بالله من الخذلان!

إن الحفيظ هو من يحفظ دينك، لا مجموعة المعلومات التي في رأسك! لا تغتر بعلمك، ولا بحفظك لكتاب الله، ولا باستظهارك لشيء من سنّة النبي ﷺ، والله ستزيغ إن لم يحفظ الله دينك!!

هذا «بلعام بن باعوراء» يؤتيه الله اسمه الأعظم، ليدعوه في أي وقت فيستجيب له، فلا يحول هذا الاسم العظيم بينه وبين الزيغ فيهلك في الهالكين.

■ وننسىٰ الله!

يحفظ حياتك، لذلك نستودعه سبحانه أحبّتنا عندما نفارقهم ونقول: أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه! يستحيل أن تضيع الودائع التي أسبغ عليها الله حفظه وأحاطها برعايته.

كلّ حادث ينجو منه صاحبه وراءه حفيظ أنجاه منه، نتذكر فائدة مانع الانزلاق، وفائدة كابح السرعة، وفائدة البالون الواقي، وفائدة حزام الأمان، وننسىٰ الله!

إذا صفعت الأمواج بعتوّها السفينة، وبلغت القلوب الحناجر، من الذي يحفظ السفينة من أن يبتلعها المحيط؟

رأيت تسجيلا لسفينة تلعب بها الأمواج، كان منظر من في

السفينة وهم يندفعون بعنف من أقصاها إلىٰ أقصاها مؤثرا، لا يملكون شيئًا، حتىٰ التفكير لا يستطيعونه، الشيء الوحيد الممكن بالنسبة لهم هو محاولة التشبّث بأي شيء ..ثم لما انتقلت الكاميرات للخارج .. رأيت السفينة قشة صغيرة في وسط الأمواج العاتية!

يعلن قائد الطائرة عن وجود عطل في الطائرة فيتحوّل أولئك الذين كان كل واحد منهم في فلك يسبح إلىٰ مخبتين، الكل يلتجئ إلىٰ الله ويعلن توبته، نسوا آمالهم وأحلامهم وهمومهم وغمومهم وصار الموت هو كل ما يمكن لعقولهم أن تتصوّره!!

من هو الذي أصلح العطل بقدرته كي تنزل الطائرة بسلام ويخرج منها أولئك الذين حوّلهم الخوف إلىٰ أشباح؟

تعرّضت طائرة كنت أحد ركّابها إلىٰ مطبات هوائيّة شديدة، لحظتها فقط استشعرت وبدقّة كِبَر جِرم الطائرة، وكيف أنّها الآن في الجوّ تسبح فوق صحراء ممتدّة، شعرت بشيء فوق الخوف، كيف كنت غافلًا طوال الرحلات التي ركبت فيها الطائرة عن هذه الصورة المفزعة لهذا الجرم الذي يتحرّك في الجوّ بقدرة الله!

ندعوه في البحر أن ينجيْ سفينتنا

فإن وصلنا إلىٰ الشاطي عصيناهُ

ونـركـب الـجـوّ فـي أمـن وفـي دعـة
فـمـا سـقـطـنـا لأن الـحـافـظ الـلـهُ

❁ ❁ ❁

■ المعقّبات

يقول تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾

لأجلك أنت يأمر الحفيظ سبحانه أربعة ملائكة أن يحيطوا بك حتىٰ يحفظوك بأمره من كل ما لم يقدّره عليك.

كيف لا يكون حفيظا وقد أوكل بك هذا العدد من ملائكته الكرام حتىٰ يصدّوا عنك أي طلقة لم يشأ سبحانه أن تخترق جسدك، وأي صخرة لم يرد سبحانه أن تنهي حياتك، بل وأي بعوضة لم يشأ سبحانه أن تؤذي بشرتك!

شاهدت وبذهول المقطع الذي تظهر فيه حادثة محاولة اغتيال الشيخ عائض القرني في الفلبين، وكيف أن المجرم وجّه إلىٰ صدر الشيخ عائض ستّ رصاصات من مسافة متر تقريبًا، ولا حائل بين الطلقات والشيخ، والقاتل يبدو أنّه محترف، ولا توجد مقاومة من الشيخ أو من مرافقيه .. ثم يخرج الشيخ

من تلك المحاولة الآثمة سليمًا معافىٰ!! وأتذكر كيف أن طلقة واحدة ومن مسافة بعيدة، أودت بحياة الرئيس الأمريكي جون كندي مع أن سيّارته كانت تتحرّك، وحوله الحرس والجنود!

ثم يعلن الشيخ أنّه كان قد ذكر الله، وحصّن نفسه بالأدعية!

هذه الحادثة درس متكامل بل كتاب من عدّة أجزاء في معنىٰ اسم «الحفيظ»!

■ **ما بين القوسين ..**

أتعلم أنّه يحفظك في كل لحظة؟

بل في كل لحظة يحفظك مئات المرات!!

كيف؟

في هذه اللحظة التي تقرأ فيها (ما بين القوسين) حفظ قلبك من التوقّف، وشرايينك من الانسداد، وعقلك من الجنون، وكليتك من الفشل، وأعصابك من التلف، ورأسك من الصداع، ومعدتك من القرحة، وأمعاءك من التهاب القولون، وأعضاءك من الشلل، وعينيك من العمىٰ، وسمعك من الصمم، ولسانك من الخرس، كل هذا وأكثر حفظه في هذه اللحظة، ثم يستمر هذا الحفظ في اللحظة التي تليها، وهكذا ..

فكم «الحمد لله» ينبغي أن نقولها في اللحظة الواحدة؟

■ قارورة ..

إذا أوقفتَ سيّارتك في مكان مظلم وخشيت عليها أيدي السُرّاق فاستحفظها الحفيظ، فلن يضيّع سبحانه ما استحفظته عليه.

إذا خرجت من بيتك وخشيت علىٰ أطفالك فقل: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، ستعود -بإذن الله- وهم في أحسن حال، لأنّه الحفيظ!

إذا ألجأتك الظروف أن تترك شيئًا ثمينًا في مكان عام أو مكان غير آمن فانزح بقلبك إليه وقل: اللهم احفظه، وثق أنّ عين الله ستكلؤه إلىٰ أن تعود.

أربعة من الأصدقاء ذهبوا إلىٰ مكان يبعد عن تبوك ستين كيلًا اسمه «نعمة ريط» ثم هبطوا الساعة التاسعة صباحًا سائرين علىٰ أقدامهم إلىٰ مكان يُسمّىٰ الشق! والشق هذا شرخ عظيم في قشرة الأرض، الهبوط إليه مغامرة، بل مجازفة بالحياة!

حبّهم للمغامرة جعلهم ينزلون، وصلوا إلىٰ القاع في نصف ساعة تقريبًا، ثم مكثوا إلىٰ قريب من المغرب في محاولة الصعود

إلىٰ السطح! تعلّقوا بالصخور، تزحلقت بهم الانحناءات الملساء، تهشّمت الطبقات الصخريّة تحت أقدامهم، عبروا من أماكن ضيّقة لا تتسع إلا لأصابع الأقدام!!

تعبوا، تشققت أرجلهم، أُنهكوا تمامًا، بلغ بهم العطش مبلغًا عظيمًا، باختصار: رأوا الموت!!

كانت قلوبهم معلّقة بالله، كانوا متيقنين أن لا حافظ إلا الله، يقول أحدهم (وبشهادة البقيّة) إنّه دعا الله بإلحاح وقد بلغ به العطش حدّ تمنّي الموت، فإذا به، وفي مكان لا يمكن أن يكون قد وطئته قدم إنسان في القريب علىٰ الأقل يرىٰ قارورة ماء صحّة! نظيفة، فلم يفرح بالماء الذي تقاسمه مع رفاقه، بل فرح بالله الذي كان معه في تلك اللحظة، علم أن الله الذي أوجد تلك القارورة في تلك اللحظة سينقذهم من تلك الرحلة المميتة.

لم تعد القارورة في ذهنه ترمز للنجاة من الموت، بل ترمز لحفظ الحفيظ سبحانه . .

وقبيل المغرب وصلوا للسطح وأوجههم سوداء، وثيابهم مشققة، والدماء تثعب من أرجلهم، وإيمانهم بالله بحجم تلك الجبال التي أحاطت بهم!

سهرت أعين ونامت عيونُ
في شؤون تكون أو لا تكونُ

إن ربّـا كـفـاك مـا كـان بـالأمـس
سيـكـفـيـك فـي غـد مـا يـكـونُ

❀ ❀ ❀

■ أعظم وأكثر وأكبر

ولاسم الحفيظ مع كل مخلوق قصّة، فهو لا يخلق خلقه ثم يتركهم، بل يمدّهم بالسلاح الذي يواجهون به مفاجآت الحياة، يعطي كل مخلوق سيفه الخاص ليخوض حرب الحياة:

فهو يحفظ بعض الحيوانات بقدرتها علىٰ الجري السريع كالغزال والأرنب . .

ويحفظ بعضها بقرون تبقر بها بطن من يقترب منها بسوء مثل وحيد القرن والجاموس . .

ويحفظ بعضها بضخامة الجثّة، فتدكدك أعداءها بثقلها مثل الفيل والدب . .

وبعضها يجعل سلاحها الذي يحفظها به صعقة كهربائية تصيب من يلمسها مثل فانوس البحر!

وبعض الكائنات حفظها بسموم تكمن في أجسادها كالثعابين والعقارب!

ويحفظ الحرباء بأن جعلها تستطيع أن تغيّر لونها عند الحاجة!

ويحفظ بعضها بالطيران، وبعضها بالقدرة علىٰ المراوغة، والبعض بالتسلّق ..

هذا شيء من حفظه، وما لا تعلمه البشرية من حفظه سبحانه أعظم وأكثر وأكبر!

■ يدافع عنك ..

ومن صور حفظ الله أنّه سبحانه يدافع عن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ..

تأمّل: إنّه لا يدفع عنهم الشر، بل يدافعه عنهم! وفي هذه إلماحة إلىٰ ضراوة ما سيلاقونه وتعدد أشكاله وتنوّع صوره، ولكن الله أعلم بما يوعي أعداؤه، فيدافعهم ويصدّهم عن أحبابه.

وفي الحديث القدسي: «**مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**»[1]! تخيّل: حربًا بين عدوّ للدعوة وللحق وللدين، وبين الله!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢-٨/ ١٠٥).

من المنتصر؟ من المهزوم؟ بل من المخذول؟

إنّه لعباده المؤمنين حفيظ، يحفظهم حفظًا خاصًّا، معه الحب، والرعاية، والرحمة.

يتجمّع مشركو قريش حول غار فيه رجلان: محمد ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، والإغراءات المالية تدفعهم لقتلهما، معها الأحقاد الدفينة، والرغبة في حوزة وسام الظفر بأهم شخصية في تلك المدّة ..

فيتسلل الخوف إلىٰ فؤاد أبي بكر، فينظر إليه صاحبه العظيم ويقول: ما ظنّك باثنين، الله ثالثهما؟

يا أبا بكر، هل تعتقد أنّنا اثنان؟ كلا، بل نحن ثلاثة!!

هنا تتشتت المخاوف، تزول الرعدة، يذوب التوجّس:

وإذا العناية لاحظتك عيونها

نم فالمخاوف كلّهنّ أمانُ

ها هم فتية الكهف يلتجئون إليه ويسألونه الهداية فيُلجِئهم إلىٰ كهف بلا باب، كهف مفتوح للبشر والهوام والسباع، ولكنّه يريد حفظهم فيلقي عليهم أحد جنوده، إنّه جندي الرعب!! فلا يقترب من الكهف أحد إلا وانتزع الرعب رغبته في التقدّم فتراه يُهرع خائفا: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ ..

أنا وأنت إذا أردنا أن نلقي شيئا ألقينا قلما، أو كتابا، أو صخرة، أما الله فيلقي فيما يلقي أشياء أهم وأغرب وأكبر . .

يقول سبحانه: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾

لأجل عباده وأوليائه يلقي بالرعب في قلوب الذين كفروا فتنتفض أطرافهم فَرَقًا من أولياء الله!

■ وديان السباع

ويحفظك سبحانه بالملائكة، فمن قرأ آية الكرسي قبل أن ينام أوكل الله به مَلَكا يقوم علىٰ رأسه يحفظه مما لم يقدّره الله عليه.

تخشىٰ من ماذا إذا كان الله معك؟

يجعلك هذا الاسم ترغب في أن ترفع صدرك إلىٰ الأعلىٰ ثقة بالحي الذي لا يموت، تمشي في الظلام، تجوز وديان السباع، تخوض مستنقعات التماسيح، فالحفيظ يحيطك بهالة حفظ تجعل كل هذه الأشياء لعب أطفال تافهة.

نعم هذا لا يناقض أن تعمل بالأسباب، فقد أُمرنا بذلك، وعمل بها قدوتنا عليه الصلاة والسلام في هجرته ومغازيه وأيامه كلّها، ولكن يبقىٰ السبب سببًا له قدره من الأهميّة، ويبقىٰ الله

في قلبك هو العليم، القدير، الحفيظ . .

من يقرأ قصّة الشيخ عبد الرحمن السميط رَحِمَهُ اللهُ في سفره إلىٰ أفريقيا للدعوة ونشر الدين وكيف أنّه خاض المستنقعات والوديان الموحشة في مجاهل القارة السوداء، وجاع وعطش ومرض، ومع ذلك لم يمسسه سوء، بل ظل خمسًا وعشرين سنة في طريقه اللاحب الذي اختاره لنفسه، ثم مات في الكويت علىٰ السرير! من يقرأ قصّة السميط يعرف معنىٰ الحفيظ . .

ذكر البعض مما يستأنس به في هذا السياق مما لا نتحقق دقّته ولكنّه ليس غريبا علىٰ عباد الله الصالحين: أن سعيد بن جبير أمسك به جنديان من جند الحجاج، وبينما هم في الطريق إذ نزلت الأمطار وألجأتهم إلىٰ صومعة راهب، فرفض سعيد أن يدخلها رفضا قاطعا تنزّها أن يلج مكانًا يعبد فيه الله علىٰ ضلالة، فتركاه في الأسفل وصعدا، فإذا بأسد يقترب من سعيد فيصرخون به من الأعلىٰ أن اهرب، فلا يحرّك سعيد ساكنًا بل يظلّ في عالم من الذكر دافئ، فيقترب الأسد أكثر، ثم يصل إلىٰ سعيد وكأنّه يهمس له همسا ثم ينصرف، والجنديان ينظران بخوف والراهب ينظر بعين أخرىٰ ويقول: هذا وليّ من أولياء الله!

خـــذوا كـــل دنـــيـــاكـــم واتـــركـــوا

فـــؤادي حـــرا طـــلـــيـــقـــا غـــريـــبـــا

فـــإنـــي أعـــظـــمـــكـــم ثـــــروة
وإن خـلـتـمـونـي وحـيـدا سـلـيـبـا

من الذي جعل الأسد يتوقف في اللحظة الأخيرة، إنّه الحفيظ!

■ أنا الفقير

شاهدت في مقطع مروّع عبر اليوتيوب أحدهم يمرّ من علىٰ سكّة الحديد مشيًا، والمشكلة أن القطار كان بكل قوّته قادما، ولكنّ الرجل قدّرَ أنّه سيكون في الجهة الأخرىٰ في الوقت المناسب،هذا هو تقديره ..

فجأة تعْلَق رجله بين حديد السكّة، يحاول أن ينزعها فلا يستطيع والقطار مقبل بسرعة جبّارة، وصوته يملأ ذلك المكان برعب الموت، والرجل يحاول بهلع، يكاد أن يموت قبل أن يصله الموت! ولمّا تكون المسافة بينه وبين القطار أمتارا يأذن الله لحديد السكّة أن يفسح لرجله المجال فتخرج وينتقل إلىٰ الجهة الأخرىٰ في ومضة كان جزء منها سينهي حياته نهاية مأساوية!

ثق بضعفك، ثق بهزال رأيك، ثق بفقرك، ثم اجعل قلبك معلّقا بالله، وردد:

أنـا الـفـقـيـر إلـىٰ ربّ الـبـريّـات
أنا المُسيكين في مجموع حالاتي

نبيّ الله لوط عليه السلام يهجم قومه علىٰ بيته يريدون أن يخلعوا باب البيت وأن يظفروا بضيوفه، وهم ملائكة، يا له من عار أبديّ أن يظفر فسقة قومك بضيوفك، فقال بكل ضعف: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ..

قال نبيّنا عليه الصلاة والسلام: «**يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**»[1].

الـزم يـديـك بـحـبـل الـلـه مـعـتـصـمًـا
فـإنّـه الـركـن إن خـانـتـك أركـان!

■ **يا غلام ..**

وقد يحفظك الله أيضا بأعدائك! كيف يكون ذلك؟

يقال إن لصًّا دخل إلىٰ بيت، وأراد أن يسرق مالًا في إحدىٰ الغرف وقد كان فيها طفل وأبواه، فتسلل اللص إلىٰ الغرفة وحمل الطفلَ ونقله إلىٰ غرفة أخرىٰ فصرخ الطفل فاستيقظ الوالدان مبهوتين، وتساءلا ما الذي أخرج طفلهما فخرجا يبحثان عنه في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٧٢-٤/ ١٤٧)، ومسلم في صحيحه (١٥١-١/ ١٣٣).

المنزل، استغل اللص تلك اللحظة ودخل غرفة الأبوين لسرقتها، فجأة انهار سقف الغرفة ودفن اللص!

ما الذي جاء باللص لينقذ تلك الأسرة من الموت تحت الأنقاض بحيلة كانت عليه لا له! إنّه الحفيظ الذي يحفظ عباده، يحفظهم حتىٰ بأعدائهم!

ومن أعظم الأسباب التي تستجلب بها حفظ الحفيظ سبحانه أن تحفظه!

أعد وتأمّل قراءة حديث: «**يَا غُلامُ، إنِّي أعلّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»[1]

احفظ الله، يحفظك الله . .

احفظه في أوامره فقم بها كما أمرك

واحفظه في نواهيه فانته عنها كما نهاك

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد في «مسنده» (٢٦٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في كتاب «التوسل» (٣٥).

■ اختناق

هذا كل ما في الباب، وبعد ذلك اشمخ علىٰ مخاوفك وأحزانك، سينجيك الله منها كما أنجىٰ ذا النون بن متّىٰ.

لا همّ ولا غمّ ولا كرب يقارب هم وغم وكرب ذي النون يونس عليه السلام، في ظلمات ثلاث: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، يا لها من حياة بئيسة تلك التي ستقضيها إلىٰ أبد الآبدين في بطن الحوت علىٰ تلك الهيئة الكئيبة ..

ظلام، ضيق، اختناق ..

ثم يواجه ذلك السيل من الكروب بكلمة واحدة: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

فتصعد تلك الأحرف الضعيفة، تخترق ظلمة الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، تصعد إلىٰ السماء،يُروىٰ أن الملائكة سمعتها فقالت: يا ربّ، صوت معروف من مكان غير معروف!

فيجيء الفرج، ويجيء الحفظ، ويجيء العفو، فيلقيه الحوت بالساحل، وينبت عليه الحفيظ شجرة من يقطين.

كلّنا في هذه الحياة ذو النون، والحياة قد التأمت علينا

بكروبها، ولن ينجينا منها إلا: «لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين» ..

اللهم احفظنا بحفظك، واكلأنا برعايتك، واجعل من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ومن تحتنا حفظًا منك تنجينا به مما نخشىٰ ونحاذر ..

اللَّطيف

إذا أراد اللطيف أن يصرف عنك السوء

جعلك لا ترىٰ السوء، أو جعل السوء لا يعرف لك طريقًا،

أو جعلكما تلتقيان وتنصرفان عن بعضكما وما مسّك منه شيء!

اللطيف

هل لديك أمانٍ بعيدة المنال، بينك وبينها أهوال؟

هل أخبرك الأطباء أن لا أمل في شفاء قريبك؟

هل تشعر باليأس لأن ما يمكنك أن تفعله لن يأتي إليك بما تتمنىٰ حصوله؟

إذن تعال معي لنتعرّف إلىٰ اسم الله «اللطيف» والذي ستكتشف إذا ما تأمّلته أن لا مستحيل في هذه الحياة، وأن الله قادر علىٰ كل شيء، وأن أحلامك المستحيلة ستغدو ممكنة التحقق إذا ما طرقت باب اللطيف!

■ خفيّ الألطاف

في اللغة: «اللطيف: البَر بعباده، المحُسن إلىٰ خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف»، وتقول «لَطَفَ الله لك: أوصل إليك مرادك بلطف»

واللطف أصله خفاء المسلك ودقّة المذهب ..

فلن يوصل إليك إحسانه برفق إلا من يصل علمه إلىٰ دقائق الأمور وخفايا النفوس . .

فالله سبحانه «هو المحسن إلىٰ عباده في خفاء وستر من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم أسباب معيشتهم من حيث لا يحتسبون»

فهو ذو لُطف وخفاء ودقّة في إكرامه وإحسانه، وفي عصمته وهدايته، وفي تقاديره وتصاريفه.

فمع بالغ قدرته، وعظمة علمه، وبصره بمخلوقاته، إلا أنّه ذو لطف فيما يحوط به العبد من هداية وإكرام وإحسان، لا تفجؤك أفضاله بل يسبقها برياح البشرىٰ، ويهيّئ قلبك لاستقبالها، ثم إذا نزلت بك الأفضال جعل لها من الأسباب التي تسبقها ما تكون بها ممهّدة الوقوع، وكأنّها من محض كسب العبد وهي علىٰ الحقيقة إكرام بحت من عظيم المنّ والعطاء.

وتأتي بلطفه عظائمُ المقادير والتي تستبعدُ أكثر العقول خيالًا وقوعها؛ فيجعلها كائنة حاضرة، كل خيط من ذلك المقدَّر يمسك به قدرٌ من لطفه، فلا تنتبه إلا -وبقريب من المعجزات- قد بات بساحتك! لا تعلم كيف أمكنه أن يحدث، وتتيقّن أنّ حولك وقوّتك أقل من أن تُحدثه، فتنظر إلىٰ السماء وتقول: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ .

■ نسيم اللطف

إذا أراد اللطيف أن ينصرك أمر ما لا يكون سببًا في العادة فكان أعظم الأسباب!

وإذا أراد اللطيف أن يكرمك جعل من لا ترجو الخير منه هو سبب أعظم العطايا التي تنالك!

وإذا أراد اللطيف أن يصرف عنك السوء جعلك لا ترىٰ السوء، أو جعل السوء لا يعرف لك طريقًا، أو جعلكما تلتقيان وتنصرفان عن بعضكما وما مسّك منه شيء!

وإذا أراد اللطيف أن يعصمك من معصية جعلك تبغضها، أو جعلها صعبة المنال منك، أو أوحشك منها، أو جعلك تقدم عليها فيعرض لك عارض يصرفك به عنها!

وعباد الله يرقبون تلك الألطاف من اللطيف، ويبصرونها ببصائرهم وكأنّ كل قضاء ينالهم به بصمة لطف يدركونها وحدهم.

عندما أراد اللطيف أن يُخرج يوسف عليه السلام من السجن، لم يدكدك جدران السجن، لم يأمر مَلَكًا أن ينزع الحياة من أجساد الظَلَمة، لم يأذن لصاعقة من السماء أن تقتلع القفل الحديدي،

فقط جعل الملِك يرىٰ رؤيا في المنام تكون سببًا خفيًّا لطيفًا يستنقذ به يوسف الصدّيق من أصفاد الظلم!

ولما شاء اللطيف أن يعيد موسىٰ عليه السلام إلىٰ أمّه لم يجعل حربًا تقوم يتزعّمها ثوّار بني إسرائيل ضد طغيان فرعون يعود بعدها المظلومون إلىٰ سابق عهدهم، لا .. بل جعل فم موسىٰ لا يستسيغ حليب المرضعات! بهذا الأمر الخفيّ يعود موسىٰ إلىٰ أمّه بعد أن صار فؤادها فارغًا!

ولما شاء اللطيف أن يخرج رسولنا عليه الصلاة والسلام ومن معه من عذابات شِعب بني هاشم لم يرسل صيحة تزلزل ظلم قريش، فقط أرسل الأَرَضَة تأكل أطراف وثيقة الظلم وعبارات التحالف الخبيث! فيصبحون وقد تكسّرت من الظلم العُرىٰ، بحشرة لا تكاد ترىٰ!!

لغيرك ما مددت يدا
وغيرك لا يفيض ندى
وليس يضيق بابك بي
فكيف ترد من قصدا
وركنك لم يزل صمدا
فكيف تذود من وردا
ولطفك يا خفيّ اللطف
إن عادي (الشرور) عدا

إنّه اللطيف سبحانه، بأيسر الأمور يقدّر أعظم المقادير، وتتمّ إرادته علىٰ ما شاء، وعبده غير مدرك بأن شيئًا ما يحدث!

■ الصخرة

تنام فيحبّ أن تقوم تصلي بين يديه، فيرسل ريحًا هادئة تحرّك نافذتك، أو طفلًا من أسرتك يمرّ ويحدث ضوضاء بجوار غرفتك، أو حاجة شديدة في شرب شيء من الماء؛ فتستيقظ وتنظر إلىٰ الساعة، وبعد دقائق تكون واقفًا علىٰ السجّادة تناجيه ولا تعلم أنّه هو من أيقظك!

تقود سيارتك في مرتفعات الجبال ثم فجأة ترىٰ من الضرورة أن توقف سيّارتك جانبًا لتتأكد من وجود شيء في درج السيارة (هويّتك أو محفظة نقودك) وبعد ثوانٍ ترىٰ أمامك صخرة عظيمة هابطة من أعلىٰ الجبل لو لم تقف لدكدكتك وسيارتَك! فتكمل رحلتك سالمًا، ولا تعلم أنّه هو من أنقذك!

تخطط لمعصيته، تخرج ليلًا، تفاصيل الخطّة محكمة، فجأة تمرّ سيارة من بعيد، فتشكّ أنت أن أحدهم يراقبك، فتنغّص تلك السيارة المارّة فكرة الذنب لديك؛ فتبرد إرادتك وتعود إلىٰ بيتك، ولا تعلم أنّه هو من صرفك بلطفه عن معصيته!

وكـم لـلـه مـن لـطـفٍ خـفـيّ
يـدقّ خـفـاه عـن فـهـم الـذكـيّ
وكـم أمـر تـسـاء بـه صـبـاحـا
فـتـأتـيـك الـمـسـرّة فـي الـعـشـيّ
إذا ضـاقـت بـك الأحـوال يـومًـا
فـثـق بـالـواحـد الـفـرد الـعـلـيّ

❁ ❁ ❁

■ الخفايا والخبايا

ولا بد للطّيف أن يكون عليمًا؛ فكيف يكرمك ويمنّ عليك ويهديك بلطفٍ من لا يعلم مكامن هذا اللطف؟

ولا بد أيضًا أن يكون خالقًا؛ إذ أنّ كمال اللطف يقتضي في بعض الأمور إيجاد ما ليس موجودًا وخلقَه، وها هي أسماء الله وصفاته يشير بعضها إلىٰ بعض، ويقتضي ويستلزم بعضها البعض، يقول تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ كيف لا يعلم وقد بلغ من علمه أنْ أخفىٰ عطاءاته فكانت دقيقة الحضور، هادئة النور، باهرة الشعور، كيف لهذا الرب الذي يكرم بخفاء، ويهدي بخفاء، ويصرف بخفاء، ألّا يعلم كل هذا اللطف الذي يحدثه سبحانه؟

يقول الشيخ السعدي: «وهو اللطيف الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك البواطن والخبايا»

وها هي رؤيا من أعظم رؤىٰ البشرية يراها يوسف عليه السلام وهو في حالة تقول كلّ مؤشّراتها الطبيعية باستحالة تحققها! يحكي رؤياه فيقول: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، وتأويل الرؤيا أن أباه وأمّه وإخوته الأحد عشر سيسجدون له إكرامًا وتوقيرًا!!

جميع المؤشّرات لا تدل علىٰ تحقّق مثل هذه الرؤيا!

فأبوه نبيّ كريم، كبير في السن، جليل في القدر، ولا تفضي معهودات الأمور أن يكرّم الكبير الصغير، والنبي غير النبي، والأب الابن!

وإخوته يكرهونه فكيف سيسجدون له، بل بلغ من كرههم أن خططوا لقتله، بل إن كرههم دفعهم لإلقائه في البئر، فهذه المؤشرات تقول باستحالة أن يحدث سجودهم له في يوم ما!

ثم إنّ الأحوال تقلّبت به فصار مرميًّا في بئر، ثم سلعة تباع وتشترىٰ، ثم صار عبدًا في بيت عزيز مصر! وحال العبودية تلك تقضي أيضًا بتأكيد معنىٰ الاستحالة هذه!

ثم انتقل من كونه عبدا خادما في قصر إلىٰ عبد حبيس في سجن! فبعدت المسافة أكثر بينه وبين تحقق تلك الرؤيا!!

ولكنّ اللطيف سبحانه يقدر الأقدار، ويصرّف الأمور، ويخرجه من السجن، ويجعله في منصب رفيع، ثم يقدّر القحط علىٰ البلاد، ثم يأتي بإخوته في ثياب الحاجة، وما تزال أقدار اللطيف تلتف لتحقق تلك الرؤيا القديمة؛ فيعجب يوسف لسجود والديه وإخوته ويقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾

وإلا فلولا إرادة ربّه لما تحققت . .

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾

هذا اختصار للطف الذي سيطر علىٰ المشهد ثم يضع التوقيع النهائي فيقول: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ .. نعم إنّه اللطيف إذا أراد شيئا هيّأ أسبابه بكامل اللطف وتامّ الخفاء، حتىٰ أنّه ليقع ما يستحيل في العادة أن يقع! لأنّه الله اللطيف الخبير.

■ الأحلام البعيدة

إذا رأيت الأرض صفراء بلقعًا، ثم تكوّم السحاب فوقها، ثم تصافعت الرعود ونزل المطر فاهتزت تلك الأرض واخضرّت فلا تقل إن مثل هذا أمر طبيعي، وتدبّر: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

مهما تباعدت أحلامك وصار بينك وبينها مفاوز شاسعة فاللطيف يأتي بها: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾، فلا تيأس وربّك لطيف لما يشاء.

تأمّل حبّة الخردل! إنّك لا تكاد تراها إن لم تكن محدّقا فيها: انظر إلىٰ حجمها بالنسبة لكفك، ثم بالنسبة لحجم غرفة مثلا، ثم بيت، ثم قارن حجمها بحيّك، ثم بمدينتك، ثم بدولتك، وبعد ذلك بقارّتك، ثم بالأرض، ثم بالسماوات الفسيحة، ثم ثق: إن أرادها الله فسيأتي بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾!

فمن بلغ بلطفه أن يأتي بحبة الخردل من متاهات هذا الكون العظيم، ألا يمكن للطفه أن يقود قدرًا إليك -كل المقدّمات المنظورة لا توصله إليك، ولا تدلّه عليك- بلىٰ والله.

يصل صاحبي في رحلة شاقة من تبوك إلىٰ حدود الأردن، عنده في صباح الغد محاضرات في جامعة مؤتة يجب عليه حضورها، وفي الحدود وبعد قطعه لمسافة مئة كيلو متر يتذكر أن جواز سفره في بيته! يتكدّر ويقرر العودة وعدم السفر ذلك الأسبوع..

في الغد يقرأ في الصحف عن أنّ بعض طلبة الجامعة - وطلاب الجامعة خليط من جنسيات عديدة- قاموا بأعمال شغب في جامعة مؤتة مما أسفر عن جرحىٰ!

اللطيف أنساه الجواز، حتىٰ لا يرىٰ الدم، أو حتىٰ لا يصبح الصباح وهو في المستشفىٰ! أو حتىٰ لا يتسلل الخوف إلىٰ قلبه فيترك الدراسة التي كان قد قطع فيها شوطًا كبيرًا!!

ارقب ألطاف اللطيف، هي ولا شك تترىٰ، في كل قدرٍ لطفٌ ما، وفي كل لحظةٍ ألطافٌ تحوطك من قِبَل اللطيف الخبير.

■ لطف اللحظة الحاسمة

انظر لنفسك حينما تدخل الغرفة في اللحظة التي كاد طفلك أن يسقط فيها من علىٰ السرير وتساءل: لماذا الآن بالذات دخلت الغرفة؟

تأمّل ذاتك يوم أن تدخل المطبخ لتشرب الماء فإذا بك تسمع أزيز الكهرباء من فيش الثلاجة مثلًا، فتفصله وأدخنة الحريق كانت في بدايتها وتساءل: ما الذي أدخلك في هذه اللحظة بالذات؟ لماذا لم تتأخر خمس دقائق فقط؟

وحتىٰ لو لم تحدث لك مثل هذه التفاصيل، فمن المؤكد أن ما هو قريب منها قد حدث لك، فقط أطلق لذاكرتك العنان، وسوف تتذكر ظلال اللطف وهي تغمر حياتك ..

وبعد هذا الإبحار الهادئ مع هذا الاسم العظيم، والذي لم نأت إلا علىٰ شيء يسير من معناه، وبقي من خبايا معناه ما أتركه لفهمك وتأمّلك ورجوعك لكتب أهل العلم فيه.

وبعد هذا الإبحار، ألا يستحق هذا اللطيف أن تحبّه؟ أن تتأمّل عطاياه؟ أن تزيد في قلبك من ذكره ومراقبته ورجائه وخوفه؟

أن تعيش مع هذا الاسم أياما .. تدعوه به، وترقب ألطافه، وتفيض عيناك لرؤية خفيّ هداياته وهداياه؟

قل في خشوع:

يا خفيّ الألطاف نجّنا مما نخاف ..

اللهم يا لطيف الطف بنا، والطف لنا، وقدّر لنا من ألطافك الرحيمة ما تقوّم به عوج نفوسنا، وتهدي به ضال قلوبنا، وتجمّل به شعث حياتنا.

الشَّافي

يشفيك بسبب ..

ويشفيك بأضعف سبب ..

ويشفيك بأغرب سبب ..

ويشفيك بما يُرىٰ أنّه ليس بسبب ..

ويشفيك بلا سبب!

الشافي

هل رضّتك الأوجاع؟ وأتعبتك الآلام؟ وأشعرك المرض أن الحياة رماديّة اللون؟

هل كرهت مراجعة الأطباء، وتعبت من السير في ممرات المستشفيات، واختلطت في عقلك أسماء العيادات، بتواريخ المراجعات، بأوجه المرضىٰ؟

إذن ما رأيك أن أطلعك علىٰ شيء يغسل روحك من أوصابها وأتعابها؟

إنّه اسم الله «الشافي» . .

اسمح لنفسك المنهكة أن تلتقط أنفاسها قليلًا، لتقرأ عن هذا الاسم الرحيم، هذا الاسم الذي ستعلم بعد أن تتفيّأ ظلاله مقدار حاجتك إليه، ومقدار بعدك عنه أيضًا . .

■ لا مرض بعد اليوم

الشافي من أسمائه سبحانه التي نحمده عليها، نحمده أن

تسمّىٰ بهذا الاسم، وأن اتّصف بصفة الشفاء، وأن كان هو وحده من يشفي ويعافي أجساد عباده، وهو اسم يُفصح عن معناه، ويعكس ظاهره خبايا باطنه.

والشفاء متعلّق بالمرض . .

ولأنّ المرض في حياة الإنسان عرض متكرر الحدوث، متنوّع الآلام، متعدد الأشكال، لا تكاد تخلو منه نفس، فمن شُفي من مرض عينه شعر بصداع رأسه، ثم إن سكن صداع رأسه آذته خشونة مفاصله، فإن هدأت تلك الأوجاع أخذته الحمّىٰ، فإن بردت الحمّىٰ ارتفعت التهابات القولون لديه، فإن خفتت هجم عليه عصب الضرس . . وهكذا، لا يكاد يخلو يوم من ألم!

فإن عمّت العافية جسده، نظر فإذا بأخيه يتأوّه، أو أمّه تبكي، أو ابنه يأنّ، أو حبيبه يتألم . .

الحياة حقل أمراض، وأوجاع، وتنهّدات، لذلك فقد سمّىٰ الله نفسه بالشافي، لتسجد آلامك في محراب رحمته، وتنكّس أوجاعك رأسها عند عتبة قدرته . .

المرض فضيحة كبرىٰ تُبتلىٰ بها غطرسة البشر!ذبول مفاجئ يفقد فيه الإنسان ازدهاره! نكسة لحيويّة ذلك الهَلوع المنَوع . .

قدّر الله ﷻ علىٰ هذا الجسد أن تنطفئ نضارته مؤقتًا، حتىٰ يقتنع الإنسان بضعفه، وبأنّه لا حول له ولا قوّة . .

قدّر الله المرض علىٰ الإنسان حتىٰ يتذكر شيئًا أشبه ما يكون بهذا المرض، إنه الموت!! فكما أن المرض نهاية الحيوية فكذلك الموت نهاية الحياة.

أيها الإنسان، إن حقيقتك الموت، وإنّ كل شيء فيك يشبه الموت، نومك موت، مرضك موت، انتقالك إلىٰ مرحلة عمرية موت للمرحلة السابقة، فالشباب موت الطفولة، والكهولة موت الشباب، إنّك أشبه بالموت من الحياة، ومع ذلك فإن الوهم يجعلنا نعتقد أننا مخلّدون ولهذا يصرخ المرض بأجسادنا، أنّها إلىٰ زوال!

وبينما يستلقي ذلك الجسد المنهك علىٰ سرير المرض، ينظر إلىٰ الداخلين إليه والخارجين من عنده، وهم يحملون علىٰ رؤوسهم تيجان الصحّة والعافية، بينما يحدث ذلك، تستيقظ في داخله ذكريات التراب، فتعمّ كيانه نكهة المقبرة، شعر بذلك أم لم يشعر!

روحك وأنت مريض تكون في اجتماعات مغلقة مع الموتىٰ، وبدايات الانهيار الداخلي تنضح بها عيناك وشفتاك وارتجاف في أطرافك الباردة.

ها هي الحياة التي في داخلك تلوّح بكفيها مودّعة أولئك الزائرين.

ولمّا يأخذ المرض مداه، وتنغسل أنت من الدنيا جيّدًا، يأذن الشافي سبحانه للداء بالانصراف عن جسدك، ويأمر الصحة أن تعاود سيرتها الأولىٰ، فإذا باللون الورديّ يتصعّد علىٰ وجنتيك، وتعود ابتسامة أذبلتها أيام الرُحَضَاء ..

■ **يشفيك بلا سبب!**

لأنّه الشافي: يشفيك بسبب ..

ويشفيك بأضعف سبب ..

ويشفيك بأغرب سبب ..

ويشفيك بما يرُىٰ أنّه ليس بسبب ..

ويشفيك بلا سبب!

يشفي بالأعشاب، ويشفي بالأدوية المفردة والمركّبة، ويشفي بالغذاء، ويشفي بالماء ..

ومن أغرب ما قرأت أن طفلًا مصابًا بالسل وأمراض أخرىٰ زعم الأطباء أن موته قد شارف، وأذنوا لوالده أن ينقله معه إلىٰ الريف ليستمتع في آخر أيّامه بهواء الريف العليل ومناظر الحقول الطبيعية، وبينما هو يمشي وبيده قطعة كعك باردة إذ لقيه رجل طاعن ونظر إلىٰ عينيه الذابلتين وسأله: هل تريد الحياة يا بُني؟

فهزّ رأسه أن نعم، فقال: كيف تحصل علىٰ الحياة وأنت تأكل طعامًا ميّتًا؟

عليك بالطعام الحيّ، اللحوم والخضروات وكل ما خلقه الله في الطبيعة ومازالت حرارة التراب فيه وأثر الحياة عليه!

يقول الطفل فنزلت نصيحة ذلك الرجل من قلبي منزل التصديق والانصياع، فصرت لا آكل إلا الطعام الحي، الطعام الذي يحمل في داخله حيويّة الحياة النابضة، اللحوم بأنواعها، والخضروات بأشكالها، والخبز الحار قريب العهد من الحقل، والفاكهة الناضرة، يقول: فتحسّنت صحّتي وتورّد جسمي، مما حدا بأبي أن يذهب بي إلىٰ المستشفىٰ وبعد كشوفات وتحاليل فغرت أفواه الأطباء .. المرض لم يعد له وجود!! يحكي هذه القصة نفس الطفل بعد أن كبر وأصبح من أشهر المعالجين بالغذاء في العالم إنّه «جايلورد هاوزر» في كتابه «الغذاء يصنع المعجزات».

نعم حكم عليه الأطباء بالموت، ولكن ملك الملوك لم يحكم عليه بذلك!

نعم أراد الأطباء أن تنتهي حياته في الريف، ولكن الله لم يرد ذلك!

نعم عجز الأطباء عن علاجه، ولكنّ الله لم يعجز ولن يعجز ولا يعجز!

■ لا تدري!

من الذي أودع أسرار الشفاء في الخضروات واللحوم وغيرها من النباتات والأشياء التي في متناول أفقر رجال الدنيا؟ إنه الله الشافي سبحانه.

فلعلّك مصاب بمرض، وأنت لا تدري، وتأكل الطعام الذي فيه شفاؤك وأنت لا تدري، تمرض ويشفيك وأنت لم تعلم أصلا بمرضك ولا بشفائك!!

وقد يضع سبحانه شفاءه في الماء، وكلّنا يحفظ «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»[1] وهو «**طَعَامُ طُعْمٍ وَشِفَاءُ سُقْمٍ**»[2]، وكم من مريض أضناه المرض فأدمن شرب هذا الماء المبارك فبرئ بإذن الله.

ومن استعرض أحاديث الشفاء وجد كمّا كبيرًا من الأدوية النبويّة، جمع بعضها ابن القيم في كتابه «الطب النبوي» . .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣١٧٨-٩/٣١١).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢٩٥-١/١٨٦).

فمن الأدوية علىٰ سبيل المثال لا الحصر: القسط البحري والهندي، وألبان البقر، وسمنها، والسنا والسنوت، والحبة السوداء، والتلبينة، وقيام الليل .. وفي كل ذلك أحاديث صحيحة.

وهو سبحانه يشفي بالصبر، ويشفي بالدعاء، ويشفي بالصدقة، ويشفي بالاستغفار، ويشفي بالتوبة، ويشفي بالرضا، ويشفي بلا شيء!

■ وعاد النور ..

دخل علينا في مكتبة الشؤون الدينية في مستشفىٰ الملك عبد العزيز بتبوك والهلع ينسج علىٰ وجهه سحابة قاتمة اللون، افتقدنا في تلك اللحظة ابتسامته المشرقة، سألناه؛ فإذا به يقول لنا إنّ ابنه منوّم في الدور العلوي، قدْ وقع عليه حادث وفقدَ بسببه بصره!!

يا لهول فجيعتنا، فكيف بفجيعة قلب هذا الأب؟

قال برجاء: أريد من أحدكم أن يقوم معي ويرقي ابني، علّ الله أن يشفيه ..

نهض صاحبي علىٰ الفور وذهب معه، وبعد ساعة عاد

صاحبي وأخبرني أنّه رقاه ثم أمسك بالأب وصبّره وأخبره بحديث «**دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ**»[1] .. قال فأخرج الأب من جيبه خمسمئة ريال وقال له تصدّق بها بنيّة الشفاء عن ابني .. بعد يومين دخل الأب بوجه آخر وطلب من صاحبي مرافقته، عاد صاحبي بعد نصف ساعة تقريبًا متهللًا وقال: أبشّرك، صار يرىٰ شيئًا من نور الغرفة! ثم أخبرني أن الأب أعطاه ألف ريال ليتصدق بها، كان ذلك اليوم نهاية الأسبوع. يوم السبت أخبرني صاحبي أن الأب جاءه وأخذه إلىٰ غرفة ابنه، ولم أصدّق حين قال لي إن ذلك الطفل قد صار يرىٰ كسابق عهده!! لقد عاد بصره، وصار يرىٰ الحياة من جديد ..

من الذي شفاه؟ من الذي كتب لعينيه الحياة؟ من الذي أعاد ذلك الضياء إلىٰ مقلتيه؟

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

سبحانه قال لبصره عد، فعاد البصر!

■ عُدْ إليه ..

لا يريد منك سوىٰ العودة إليه، أن تتلمّس الطريق المؤدي إليه ..

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠١٩٦-١٠/١٢٨).

عد إليه بالرضا، عد إليه بالسجود، عد إليه بالتوبة، عد إليه بالاستغفار، عد إليه بالصدقة، عد إليه بالاعتراف ..

اطرق بابه، ثم ارتقب الشفاء ..

ليس هناك مستشفىٰ في الدنيا تداويك إذا لم يشأ الله لها ذلك.

ليس هناك طبيب في العالم يستطيع أن يشخّص مرضك، إلا إذا أراد الله ذلك.

أحد الأثرياء مصاب بالفشل الكلوي يسافر به أبناؤه إلىٰ مصر لزراعة كلية ..

فاتفق الأبناء مع أهل فتاة صغيرة في السن علىٰ مبلغ مئة ألف ريال سعودي ثمنًا لكليتها،وفي الصباح كان الجميع في المستشفىٰ، فطلب الرجل قُبيل العملية اللقاء بالفتاة التي قررت بيع كليتها له، دخلت إليه في خفر وحياء، فسألها: ما الذي دعاك إلىٰ أن تبيعي كليتك لشيخ كبير مثلي؟

فقالت: الحاجة! أسرتي فقيرة، وإخوتي في الجامعة، يجب علي أن أفعل شيئًا لأساعدهم!!

كأنّها صفعته! أيقظته من سبات، نسي معه احتقان الدم الفاسد في جسده، تساءل في نفسه: أيُعقل أن يستغني إنسان عن

جزء من جسمه، عن قدْر من حياته لأجل أن يأكل، أن يعيش؟

طلب علىٰ الفور أبناءه؛ فلما دخلوا عليه أمرهم أن يعودوا به إلىٰ السعودية فقد ألغىٰ فكرة الزراعة!!

وأخبرهم أن مبلغ المئة ألف صدقة منه للفتاة، لا يأخذوا منه ريالا!

وبعد مقاومة من أبنائه، وغضب من بعضهم، رضخوا لرغبة أبيهم، وبعد عودته إلىٰ السعودية يذهب إلىٰ المستشفىٰ كالعادة للغسيل، وفي فحص دوريّ يكتشف الأطباء وبذهول أن كليته عادت للعمل!

قدرة ملك الملوك علىٰ الشفاء لا تحتاج إلىٰ مبضع جرّاح، إنّه الملك الذي ينظر من علياء ملكه: فيشفي مريضًا، ويسعد مكروبًا، ويعيد مسافرًا، ويبرئ جريحًا ..

■ موعد مسبق

يُمرضك لتعود إليه فإذا عدت رفع المرض إذ أنه لم يعد للمرض فائدة!

يمرضك لتتواضع فإذا تواضعت وذللت رفع عنك المرض لأنه لم يعد للمرض فائدة!

يمرضك لتشعر بالآخرين فإذا شعرت بهم رفع عنك المرض لأنه لم يعد للمرض فائدة!

يمرضك ليختبر صبرك ورضاك فإذا صبرت ورضيت رفع المرض لأنه لم يعد للمرض فائدة!

الشافي الذي لن تحتاج إذا أردت الدخول عليه إلىٰ موعد مسبق، وبطاقة تؤهلك للعلاج، وأن تأتي قبل الموعد بربع ساعة علىٰ الأقل هو الله!

فقط قل: يا الله، فإذا بأعظم مستشفىٰ إلهي تفتح أبوابها، إنّها مستشفىٰ الرحمة والقدرة واللطف والشفاء ..

يقول صديقي إنّه سمع تهشّم عظام ذلك الطفل تحت إطارات سيّارته، أوقف السيارة، وحمل الطفل إلىٰ المستشفىٰ وقلبه يرجف، جاء أبو الطفل وجدّه، كان صديقي فاقد الصواب، لم يدر بخلده أنّه سيقتل طفلًا في حياته!!

كان صوت العظام المتكسّرة يتردد في أذنيه!

أقبل إليه جدّ الطفل وهدّأ من روعه وأخبره أن ما يكتبه الله سيكون، وسيرضون به ..

صلىٰ بهم ذلك الجدّ صلاة العشاء في مسجد المستشفىٰ وقرأ «وبشّر الصابرين»، بكىٰ صديقي بحرقة!

بعد الصلاة خرج الأطباء وأخبروا الأب والجد أن الأمل في حياة الطفل ضئيل، فهو يعاني من تهشّم فظيع في الجمجمة!!

صُعق صديقي، عاد خائر القوىٰ إلىٰ بيته، غاب عن العمل أسبوعًا كاملًا، فقدْ كان في صدمة مذهلة.

لم يكن هناك دواء لذلك الطفل البئيس أعظم من إيمان جدّه ودعوات أمّه ويقين أبيه وتعلّق الجميع بالله ..

بعد أقلّ من أسبوع زرت بنفسي ذلك الطفل الجميل، فإذا به يضحك ويلعب ويقوم ويتحدّث معنا، صدق الله وأخطأ الأطباء، صدق جابر العظام المنكسرة ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾

من الذي يقدر علىٰ أن يلأم تلك العظام المتنافرة؟ ويعيد البسمة إلىٰ ذلك الثغر؟ وينفخ الروح من جديد في جسد انفتحت له أبواب المقبرة؟

الله وحده من يقدر علىٰ ذلك!

■ ضع نقطة

هذا هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي جاء ربّه بقلب سليم، سليم من أي ذرّة شرك قد تعتري قلبًا ضعيفًا، يقولها عليه السلام

فيفهم المؤمن الدرس ولا يلتجئ إلا للحي الذي لا يموت: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، هو وحده، لا أحد سواه يشفيني.

ضع نقطة هنا، لن تحتاج إلىٰ غيره إذا أراد شفاءك، ولن يفيدك غيره إذا لم يرد!

يرضّ الجدريّ جسد أيوب عليه السلام، تتشتت أسرته، تتبعثر أملاكه، أكثر الناس تفاؤلا يفقد الأمل في شفائه، وهو صابر محتسب! تشتعل الأسقام في جسده وهو منكّس الرأس لمولاه،وبعد سنوات البلاء، يندّ من شفتيه دعاء حيي، دعاء منكّس رأسه بذلة، دعاء ممتلئ باليقين:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

فإذا بأبواب السماء تنفتح بالرحمة ..

وإذا بالأوامر العليا تنزل من فوق السماء السابعة لأجل ذلك المهموم المكروب ..

تنتهي في ساعة سنوات العذاب، ليأتي عهد الشفاء!

لماذا تذهب إلىٰ غيره؟

لماذا تلتجئ إلىٰ سواه؟

لماذا تثق بكل هؤلاء الموتىٰ الذين يتحرّكون حولك وتنسىٰ الحي الذي لا يموت؟

من الذي خدعك وأقنعك أن الشفاء قد يأتي من طريق آخر؟

كيف ضحكَتْ عليك الحياة بهذه السرعة، ونسيت ذلك الذي أخرجك من بطن أمّك دون طبيب، وخلق لك في صدرها رزقًا حسنا، وعلّمك وأنت أجهل ما تكون كيف تزم شفتيك علىٰ صدرها لترضع؟ أنسيت الذي خلق الرحمة في قلب تلك الإنسانة لتضمّك؟ وتعتني بك؟

أبهذه السرعة نسيته؟

أهكذا ظننت أنه يمكنك الاستغناء عنه؟؟

ها هو سبحانه بالمرض يذكّرك بأيامك الأولىٰ، بالمرض يقول لك: عد إليّ، فكما خلقتك من عدم فأنا وحدي الذي أرفع عن جسدك السقم!

■ الرضا

قد يكون الدواء أقرب إليك مما تظن!!

فها هو أيوب عليه السلام يُؤمر أن يضرب برجله الأرض ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾!

لقد كان الدواء بالقرب منه، لم يكن ينقصه إلا مشيئة الله حتىٰ تكتمل أسباب الشفاء، فلما شاء الله، علِم أيوب مكان

الدواء فنجع الدواء بإذنه سبحانه.

أنت لا تحتاج أن تحجز إلىٰ واشنطن أو باريس أو بكين، فدواؤك إن شاء الله قريب، فقط احجز لقلبك رحلة إلىٰ مدينة الرضا:

دواؤك فيك وما تشعرُ
وداؤك منك وما تبصرُ

إذا رضيت عن الله أرضاك الله ..

المرض من أقسىٰ اختبارات الرضا، فإذا كانت إجاباتك في هذا الاختبار راضية، كانت النتيجة مُرضية بإذن الله.

قد يسأل البعض: كيف أرضىٰ بالمرض وفيه الألم المكروه فطرة؟ كيف أرضىٰ بالشيء الذي أكرهه؟

يجيب الإمام ابن القيم عن هذا التساؤل قائلًا: «لا تنافي في ذلك، فإنّه يرضىٰ به من جهة إفضائه إلىٰ ما يحب، ويكرهه من جهة تألّمه به، كالدواء الكريه الذي يعلم أن فيه شفاءه، فإنّه يجتمع فيه رضاه به، وكراهته له»

قل من بين آهاتك ما أمر به نبيّك أمّته أن تقول: «**رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا**»[1]، قلها بقلبك، بل

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٨٦-١/ ٢٩٠).

روّض قلبك علىٰ الرضوخ لمعناها، بل اغسله بها غسلًا، فالرضا عن الله فرع عن الرضا بالله .. وإذا رضيت به أرضاك!

اجعل قلبك يتنفَّس الرضا، اجعله يتلذذ بالرضا،ثم تأمل جسدكِ، وسترىٰ أمارات الشفاء تدبّ في نواحيه بإذن الله ..

اجمع يديك واتل اسمه في دعائك ثم امسح علىٰ جسدك، يُرجع سبحانه بتلك النفثة أشياء كانت علىٰ وشك المغادرة!

اجعل المرض بداية عهد جديد تتعرّف فيه إلىٰ ربّك من خلال اسم الشافي ..

■ أنهار الذنوب

لقد مرضتِ كثيرا في حياتك .. أليس كذلك؟ من شفاك؟ أليس الله؟لماذا تظن أن هذا المرض بالذات يُعجزه؟ هذا الظن وهذا الإحساس يستحق العقوبة منه، وقد يكون مرضك عقوبة لاعتقادك المريض، انفض المرض عن قلبك أولًا، ثم التجئ بالشافي إلىٰ الشافي يشفِك.

كل هؤلاء المرضىٰ في المستشفيات ينتظرون الإذن لهم بالشفاء من الشافي سبحانه ..

ليس هناك آهة إلا ويسمعها،ولا ألم إلا ويعلم موضعه،ولا

زفرة إلا ويرىٰ نيرانها في الفؤاد.

ثم إذا ما تمّ مراده، ونزفت عبر آهاتك أنهار الذنوب، أمر سبحانه العافية أن تعود فإذا بك تمشي في أرض الله وقد اغتسلتَ من الذنوب!

لأنّه الرحيم يشفيك ..

لأنه العليم يشفيك ..

لأنه الحليم يشفيك ..

لأنّه القدير يشفيك ..

لأنّه الله يشفيك ..

معه ستمسح أرقام وأسماء الأطباء!

معه ستنسىٰ مواقع المستشفيات!

معه ستلغي مواعيد العيادة!

ابنِ في غرفتك مستشفىٰ جديدة اسمها السجّادة ..

واعقد موعدًا مع السجود ..

وسجّل في قلبك اسما واحدًا: الشافي!

اللهم يا شافي، اكتب شفاءك ورحمتك لكل روح ضعيفة، ولكل جسد منهك، ولكل قلب متعب إنّك سميع الدعاء.

الوكيل

أمانيك مع الله حقائق ..

تطلّعاتك واقع معاش ..

رغباتك ستُهدىٰ إليك ..

أشواقك ستهبّ عليك ..

الوكيل

هل تشعر بضعفك؟ وبأن الدنيا بتفاصيلها أكبر منك، وبأنّك ريشة في مهب ريح الحياة الصاخبة؟

هل تشعر أنّك طائر قُصّ جناحاه فهو خائر القوىٰ، بحاجة إلىٰ مساعدة؟

هل لديك أشياء تخشىٰ عليها، وتريد أن تجعلها في عُهدة من لا تضيع لديه الأشياء؟ سواء كانت هذه الأشياء: أبناء أو مالًا أو صحّة أو حياة؟

إذن: فادلف إلىٰ أنوار اسم الله «الوكيل» . .

ابدأ بالتعرّف من جديد علىٰ هذا الاسم الجليل، غُصْ في أغوار معانيه، أرح نفسك من ضعفها، وقلقها، واستيحاشها بأن تجعلها تتفيّأ ظلال «الوكيل» . .

■ فاتخذه وكيلا ..

الوكيل هو الذي لا ينبغي أن تتوكّل إلا عليه، ولا أن تُلجئ

ظهرك إلا إليه، ولا أن تضع ثقتك إلا فيه، ولا أن تعلّق آمالك إلا به.

أيُّ عمل تتوكل علىٰ الله فيه انسه تمامًا، لأنّك إن توكلت علىٰ الله فهذا يعني أنّك وضعت ثقتك في إتمام هذا العمل بمن يملك الأمور كلّها، ومن السماوات والأرض من بعض مربوباته، ومن يجير ولا يجار عليه.

يقول الحق سبحانه عن نفسه العليّة: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ يأمرك ربُّ المشرق والمغرب أن تتخذَه وكيلا، فماذا بعد هذا من راحة وعز وشموخ وضمان للتوفيق؟

فقط يريدك أن تقول بقلبك: أنت وكيلي يا الله!

هل هناك غنيّ علىٰ وجه الأرض يأمرك ألّا تستعين إلا به؟ وألا تتوكّل إلا عليه؟ وألا تلتجئ إلا له؟ لا وجود لهذا الغنيّ علىٰ الإطلاق، لأنّه ليس من طاقة البشر أن يحموك من كلّ شيء ويكفّوا عنك كلّ شيء ويعينوك علىٰ كلّ شيء.

الله وحده من يقول ذلك، ويفعل ذلك، ويقدِر علىٰ ذلك!

التوكّل يقينٌ قلبيٌّ، يحيلك إلىٰ سائرٍ تحت مظلّة عظيمة تقيك من حرّ الهموم، ومطر المكائد، ورياح الدنيا المقلقة .. المحروم وحده هو من لا يقدّر هذه المظلة ومن لا يحاول السير تحتها.

أعظم الملوك وأجلّ الأرباب سبحانه يأمرك أمرًا أن تتخذه وكيلا؟ أن تضع حاجاتك في فنائه ليقضيها لك هو، أن تلجئ ظهرك إليه حتىٰ يمنع عنك سهام الغدر، أن تفوّض أمرك إليه حتىٰ يتمّ علىٰ أكمل حال وأصحّ مثال، والسؤال هو: ما الذي تنتظره؟ ما هو الشيء الآخر الذي يجعلك لا تقبل هذا الفضل؟ من الذي أعطاك أكثر من هذه المزايا؟

متعلّقون نحن بالتراب لدرجة مخيفة!

اقرأ:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

ما هو الأمر الكبير والكرب الشديد والهم العظيم الذي سيستعصي علىٰ رب العزة؟ العزّة نفسُها هو ربّها، كل عزّة رأيتها أو سمعت بها أو علمتها هو ربّها، فكيف يمكن لكروبك أن تصمد أمام إرادة ربّ العزّة والكبرياء والعظمة؟

■ خطّة سنويّة

وأعظم ما تتوكّل علىٰ الله فيه هو عبادته، أن تتخلّىٰ وتتبرأ مِن حولِك وقوّتك وتقول بقلبك قبل لسانك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فتستعين وتتوكّل وتطلب القوّة منه علىٰ أن تعبده.

لا يُتصوّر أن يأمرك الله أن تعبده، ويأمرك أن تتوكّل عليه، فتتوكّل عليه في أمر العبادة فيخذلك، هذا مما لا يُتصوّر وقوعه، كيف تطلبه أن تعبده مع كمال حبّه لهذه العبادة ثم لا يعينك؟ فقط أكثر من الكلمات النبوية الكريمة:

«اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[1].

هل قلتُ أكثِرْ منها؟

إذن أنا أعتذر، لا تُكثر منها فحسب، بل اجعلها ضمن جدولك اليومي، وخطّتك السنويّة، وأهداف حياتك!

لأنه إذا لم يعنك علىٰ ذلك، فليس هناك قوّة ستعينك ..

لأنّه إذا لم يعنك علىٰ ذلك، فلن تفعل شيئا من ذلك!

لأنه إذا لم يعنك علىٰ ذلك فقد خسرت الدنيا والآخرة!

يقول ابن القيم:

«قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون علىٰ مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين» ..

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٥٢٤-١/ ٥٦١)، والنسائي في سننه (١٣٠٣-٣/ ٥٣).

ويقول أيضًا:

«القلب يعرض له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلىٰ التلف ولا بد وهما الرياء والكبر فدواء الرياء بإياك نعبد ودواء الكبر بإياك نستعين ..

وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إياك نعبد تدفع الرياء! وإياك نستعين تدفع الكبرياء».

أرأيت الصلاة التي فرغت للتوّ من أدائها، والله لو لم يعنك عليها لما أديتها ..

■ **انكسر له ..**

وهو رحيم، فقط أنزل حوائجك ببابه، فقط اجعل قلبك منكسرًا وكأنّه مُخبت تحت العرش، ولو لم تدْعه، الرحيم سبحانه يريد هذه الحالة الخاشعة منك، وبعدها ثق بأنه سيقضي حوائجك، ويرفع مرضك، ويخلق الابتسامة علىٰ ثغرك.

أمانيك مع الله حقائق ..

تطلّعاتك واقع معاش ..

رغباتك ستُهدىٰ إليك ..

أشواقك ستهبّ عليك . .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾

الذي قمت للصلاة له، والذي مرّغت جبهتك له، والذي نكّست رأسك له، هو الأحق أن تعلّق حاجاتك به، أن توكل إليه أمر شفائك، أن يكون هو ملجأك من مخاوفك، أن تجعله سبحانه المعين علىٰ تحقيق أحلامك:

فالزم يديك بحبل اللهٰ معتصمًا

فإنّه الركن إن خانتك أركانُ

امرأة صالحة قرر ابنُها أن يكمل دراسته في الخارج، وكانت تسمع عن الضياع والانحلال الذي ينغمس فيه (بعض) من يذهب للدراسة في تلك الديار، ولكنّها كانت مغلوبة علىٰ أمرها، أمور كثيرة أجبرتها علىٰ الرضوخ، فعلمت أن الله هو القادر علىٰ حفظ ولدها، فجعلت جزءا من صلاتها دعاء لولدها بالحفظ، عاد الولد من دراسته وقد صار من أهل المسجد وقيام الليل والأمر بالمعروف والنهي علىٰ المنكر! عاد وقد اكتسب قيما لم تكن لديه من قبل! كيف نتخيّل أن الوكيل سبحانه سيترك الابن للضياع؟ وأمّهُ تتضرّع إليه أن احفظه يا رب، أن توكّلت عليك فلا تخذلني في ابني!

■ الدموع المبتسمة!

لو قال لك أحد ملوك الدنيا، وكّلني في أن أنتزع حقّك من فلان الظالم، فقط وكّلني، هل سيراودك شكّ في أن حقّك لن يصل إليك؟ أنت تحتاج إلىٰ توقيع من أحد معاوني الملك حتىٰ يجعل ذلك الظالم يعيد إليك حقّك وهو يرتجف، فكيف إن كان التوقيع من الملك، فكيف إن لم يكن توقيعًا بل قياما بالمهمّة من جهته؟

الآن دع ذلك الملك ومعاونه، وتأمّل:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾

لقد طاشت الآن كل صور الحاجات في نفسك، أليس كذلك؟

لم يعد للخوف وجود، ولا للتردد مكان، ولا للاحتمالات سبب!!

الله سيحوّل جميع مشاكلك إلىٰ حلول، وكل آلامك إلىٰ عافية، وكل أحلامك إلىٰ واقع، وكل دموعك إلىٰ ابتسامات . .

حتىٰ لو متّ، فالحي الذي لا يموت، سيعيد حقّك لأبنائك من بعدك، لا تنشغل في لحظة وجعك وغمرة آهاتك بأبنائك من بعدك، فالحيّ الذي تموت أنت ولا يموت هو سيكون لهم،

سيكون معهم، سيرأف بحالهم، سيُسعدهم، سيجعل حياتَهم أفضل منها وأنت معهم، لأنّه الحي الذي لا يموت ..

■ أكسجين الحياة

حتىٰ لو لم يظلمك أحد،توكّل عليه!

ليس التوكّل منجاة من ظلم الظالمين! وإعانة علىٰ عمل معيّن فحسب!

التوكّل هو أكسجين حياتك، هل تستطيع العيش بلا أكسجين؟

توكّل علىٰ الله في صحّتك .. أوكِلْ أمر نبضات قلبك وحركة أعضائك وتدفق دمائك في شرايينك وانتقال الطعام داخل جسدك إلىٰ الله.

لو لم يأذن الله لجفنك أن يغمض لاحترقت عينك جفافًا!

لو لم يأذن الله للسانك أن يذوق لبهتت الحياة في نظرك!

لو لم يأذن الله لجلدك أن يحسّ لتقطعتَ دون أن تشعر!

توكّل عليه سبحانه في صلاح أبنائك ..

كم قد رأيتَ ورأيتُ أبناء تربّوا في المساجد ثم ألحدوا، والعياذ بالله؟

وأبناء صرف عليهم الآباء المال والرعاية ثم ضاعوا!

وأبناء أحاطهم اهتمام إخوانهم الكبار ثم انحرفوا!

الله وحده الذي يعلم مكان الهداية في قلب ابنك، ادعه أن يملأه إيمانا، توكّل عليه، قل له بخضوع: يا رب، هذا ابني، وأنت ربّي وربّه فاهده إليك ودلّه عليك وأعنّي علىٰ تربيته ..

يا رب أنا لن أحسن أن آمره بالصلاة ما لم تعنّي ..

وهو لن يحسن أن يصلّي ما لم تعنه ..

فأعنّا علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ..

■ **الحياة جحيم بدونه ..**

توكّل عليه في سعادة حياتك، فالحياة جحيم بلا الله!!

يقولون: امدح زوجتك، حدّثها عن التفاصيل حتىٰ تخلب لبّها، ابتسم لها، عاملها بلطف بهذا كلّه ستكسب قلبها، وحبّها!

نعم كل هذا صحيح، ولكن قبل ذلك وبعده وأثناءه قل: يا رب أصلح لي زوجي ..

استعن به، توكل عليه، ادعه قائلا: كل ابتساماتي لزوجتي لا فائدة منها إن لم تشأ أنت ذلك.

تضرّع إليه قائلا: قلبُها بيدك لا بيدي فأودِم بيننا وأصلحنا يا رب لبعضنا.

الله يريدك أن تعترف أنّك ضعيف محدود القوّة متواضع الإمكانيات، وأنّه وحده القوي العزيز العظيم، إذا فعلت ذلك فقد أنهيت ثلاثة أرباع التوكل، إذا فعلت ذلك كل الأشياء من حولك تتحوّل، صدقني: تتحوّل!

دعك من حاجاتك وأحلامك وهمومك، دعنا نتخيّل أنك إنسان بلا حاجات وبلا أحلام وبلا هموم وبلا أمراض، أنت تحتاج أن تتوكّل عليه ليحبّك؟ ألست تريده أن يحبّك؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، إن معنىٰ أن يحب اللهُ العبدَ معنىٰ لا يمكن لمن لديه أدنىٰ رهافة أن يمرّ عليه دون أن يخفق له فؤاده حنينًا ورغبةً وشوقًا، الله الذي لا إله إلا هو يحبّك، هذا سبب كاف جدًا أن تسعىٰ إلىٰ التعلّق بالوكيل سبحانه وأن تتوكل عليه وأن تحب هذا الاسم الدال علىٰ هذه الصفة العظمىٰ.

■ حسبي الله

يأتي بعض الناس ليثبطوك، لينقلوا لك شيئا من الواقع البشع، ليهزّوا يقينك الداخلي، ليلعبوا بأحاسيسك، ليأمروك أن تخشىٰ أن تخاف أن تتضعضع أن تغيّر موقفك أو تحرف وجهة

مبادئك، في تلك اللحظة اغسل قلبك بالإيمان وقل: حسبي الله ونعم الوكيل، لحظتها ستنقلب بنعمة من الله وفضل ولن يمسّك سوء! اقرأ بتدبّر:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ..

أما إصابة السوء لك فلا شك أنّها لن تصيبك، ولكن حتىٰ المسّ الذي كنت تظن أنّك لن تنجو من بعضه، لن يمسّك، لن يلمس جلدك قرح، لن ينغز قلبك ندم بإذنه سبحانه!!

اقرأ بقلب: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ..

إذا توكّلت علىٰ الله فلا تعتقد أن المسألة تتعلّق بأنك لم تجد غيره لتتوكل عليه، لا أبدا، أنت تتوكل علىٰ أعظم ما يمكن أن يتوكل عليه مخلوق.

البعض يقول: ليس لنا إلا الدعاء!

عجيب! وهل هناك قوّة أعظم من الشيء الذي ليس معك غيره؟

الدعاء هو من مظاهر التوكّل، الدعاء هو تيقّن قلبي قبل أن يكون كلمات صوتية بأنّه المستطيع سبحانه كل شيء، وهذا

هو التوكّل في أوضح صُوَرِه!

الذي يقول: فلان ليس له إلا الله، قل له: وكفىٰ بالله وكيلا، ونعم بالله، وماذا ينقصه إذا كان معه ملك الملوك ورب المشرق والمغرب؟

خــذوا كــل دنــيــاكُــــمُ واتــركــوا
فــؤاديَ حُــرًّا طــلــيــقـــًا غــريــبــا
فـــإنـــيَ أعـــظـــمُـــكـــم ثـــروةً
وإن خِــلــتــمــونــي وحــيــدًا ســلــيــبــا

❁ ❁ ❁

■ سبب مقنعَ

أتدري لماذا يكفي أن تتوكل علىٰ الله؟ هناك سبب مقنع جدًّا، هو كونه سبحانه يملك السماوات والأرض: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾

هذا الذي تخشاه أليس من سكان هذه الأرض؟ إذن هو لله، والله سبحانه هو المتحّكم فيه؟

هذا المرض الذي هدّك ولم تجد علاجه، أليس في الأرض؟ إذن هو مِلكٌ لله، وهو سبحانه القادر علىٰ أن يأمره أن يغادر جسدك!

هذه الكروب والهموم والغموم والأتعاب والانشغالات أليست في الأرض؟ إذن توكل علىٰ من له هذه الأرض، ومن فيها، حتىٰ يزيل بكلمة واحدة منه كل كروبك وهمومك وأتعابك.

ولأنه سبحانه خالق كل شيء فهو القادر علىٰ عمل أي شيء، لذلك نتوكل عليه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾

تأمل: حسبنا الله ونعم الوكيل ..

أي ليس لنا إلا الله، ثم هو نعم الوكيل، فليس هناك وكيل أعظم منه أو أجل منه أو أرجىٰ منه.

■ احذر ..

احذر أن تتخذ وكيلا غيره، احذر أن تلتجئ إلىٰ سواه، سوف يصيبك الوهن، سوف تغزوك الوساوس، سوف يتعلق قلبك بشُعَب الدنيا، قال سبحانه: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾، يحرم عليك أن تبحث عن غيره وهو الموجود، أن تتكِل علىٰ غيره وهو الحي، أن تلتجئ إلىٰ غيره وهو المُقيت.

ولأنه سميع عليم تتوكل عليه، فسوف يسمع كل شيء يدور

في الخفاء، ويعلم كل أمر يحاك في الظلام، فكيف تتوكل علىٰ غيرِه، وغيرُه لا يمكنه أن يسمع ذلك أو يعلم ذلك؟ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾!

هذا الظالم الذي يؤذيك، إنما هو مخلوق لهذا الرب الذي يحميك! فتوكل عليه يردّ سبحانه أذاه، وقل بكل عزة: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾.

إذا كان الشيطان وهو ذو الجنود والعساكر، والقوّة التي أعطاه الله إياها علىٰ الوسوسة والتخويف بل والتلبّس وغير ذلك، لا يستطيع التوصّل إلىٰ المتوكّل ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فكيف بمدير في العمل أو جار سوء أو أمير أو وزير؟

تذكر:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ لن تحتاج أحدا أبدًا إذا وثِقتَ به وتوكلت عليه وجعلته هو المعين لك في شؤونك.

هو حسبك وكافيك ورادّ السوء عنك . .

أنت إن لم تحطك رعاية الله من كل جانب هلكت!

الحياة مزرعة مليئة بالأمراض والأتعاب والأشباح والخطط والمؤامرات، وبدون رعاية الله ستبتلعك هذه الأفاعي!!

لا أخوّفك، هذه الحقيقة!

قل: يا الله توكلت عليك ..

هل قلتها بقلبك؟ الآن ابتسم، كل تلك الأفاعي انتهت!

■ أشياء تهددك

إذا خرجت من البيت ينتظرك في الخارج:

حادث أليم يقع لك، أو هبّة هواء تمرضك، أو حفرة تقع فيها، أو شخص بذيء يشتمك، أو إنسان حقود يحسدك، أو موظّف معقّد يتعبك، أو بائع غشاش يخسّرك، ولكن قل عندما تخرج ما أوصاك به نبيّك الكريم: «**بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»[1] الآن اخرج مستنشقا التوفيق والتيسير بإذن الله، كل تلك المخاوف لا وجود لها ..

وإذا نمت ألجئ ظهرك إليه وفوّض أمرك إليه رغبة ورهبة إليه ..

في كل حين وفي كل لحظة تذكر، هناك رب أمرك أن

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٩٦- ٤/٤٨٦).

تتوكّل عليه، وأنت تحتاجه، لا تفرّط في هذه الفرصة، وهذه الهديّة، وهذه الميزة أبدا.

اللهم اجعلنا متوكلين عليك، ملتجئين إليك، اغمرنا بالإيمان بك، واجعل هذا الإيمان يغسلنا من التعلّق بكل ما هو دونك يا رب ..

الشَّكور

مع كرم الله تتغيّر المسائل الحسابية!!

لأنّه كرم لا يخضع للمعادلات الحسابية، بل للفضل الإلهي!!

الشكور

من المؤكّد أنه قد سبق وأسديت لأحدهم معروفًا ثم تنكّر لك؟ نسِيَك مباشرة! لم ينعكس ذلك المعروف علىٰ صفحات وجهه! بقي مقطّبًا كما كان!

تجربة مؤلمة ولا شك ..

الحياة مليئة بهؤلاء الذين لا يعرفون كلمة: شكرًا .. ولا يتقنون النطق بعبارة: أحسن الله إليك، وتعتبر الابتسامة لديهم من علم الغيب!

دعهم، فعمرك أقصر من أن تضيّعه في لومهم، أو التفكّر في مملكة النُكران التي قرروا العيش فيها! وانصرف إلىٰ «الشكور» سبحانه، لتحيي أزاهير قلبك التي حطّمها هؤلاء ..

عش مع الشكور، تأمّل ظلال هذا الاسم العظيم، امسح تجعّدات الحياة المتعبة بمعاني هذا الاسم الجليل ..

■ إذا أعطاك أدهشك ..

سبحانه يشكر عبده علىٰ ما قدّم من عمل صالح .. وكلمة «عمل صالح» لا حدود لها، تكاد لعظمتها واتساعها تملأ ما بين السماوات والأرض!

فهو سبحانه يأمرك بهذا العمل الصالح الذي فيه صلاح دنياك وآخرتك فإذا عملته، يكون سبحانه هو المستحق لشكرك لدلالتك عليه، وتيسيره لك، وإصلاح حالك به، أليس كذلك؟ ولكنه بكرمه هو من يشكرك عليه!

فهل في الكرم مثل هذا؟ وهل في الجود قريب من هذا؟

كيف يشكرك؟

هذا سؤال تفنىٰ الأعمار دون الإجابة عنه ..

فكما أن ذاته سبحانه لا تدركها الأبصار، فإن أسماءه وصفاته لا تدرك كيفيتها ومنتهىٰ علمها العقول.

ومع ذلك فلنا من باب التفكر والتدبر أن نسيح مع هذا الاسم العظيم نستجلي ظلاله في حياتنا ..

فمن شكره سبحانه:

يغفر الذنوب ويستر العيوب ..

يوفي الحسنات ويعظم الأجور ..

يعطي الصحة والعافية، والأبناء، والمال، والحياة الهانئة . .

يرزقك الذكر الحسن والسمعة الطيبة . .

يستجيب دعواتك، ويشعرك بقربه، ويؤنسك به . .

يشفيك من أسقام مات غيرك بمثلها . .

ويرفع عنك بلايا تضعضعت نفوس غيرك بأقل منها . .

يهديك إلىٰ الحق، وقد ضل الكثير عنه . .

ويثبتك علىٰ الهداية، وقد زاغت عنها أفئدة من هم أذكىٰ منك وأعلم منك وأقدم في الإسلام منك!

■ مسألة حسابيّة

اقرأ وتخيّل:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ هل انتهت؟ لا: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ سبحانك!

حبّة في العمل تتحوّل بفضله وبكرمه وبشكره لك إلىٰ سبعمئة حبّة في الأجر والثواب.

كيف: واحد يساوي سبعمئة!

تعمل صالحًا يستحق أجرًا مثله، فيأجرك الله مثله سبعمئة

مرّة، ويضاعف لمن يشاء!

مع كرم الله تتغيّر المسائل الحسابية!! لأنّه كرم لا يخضع للمعادلات الحسابية، بل للفضل الإلهي!!

سبحانه! إذا أعطاك أدهشك، وإذا أكرمك أذهلك . . ومن ذا الذي لم يعطه العظيم ويكرمه الكريم؟ نحن في كل لحظة من حياتنا بل في كل جزء من اللحظة نستقبل ما لا يمكن إحصاؤه من العطايا والهبات!

■ واذكر في الكتاب

هؤلاء أنبياؤه عملوا الصالحات وجاهدوا لتبليغ كلماته، فشكرهم بأن أعلىٰ ذكرهم وجعلهم قدوات يُقتدىٰ بهم وخلّد قصصهم وعبرهم في أعظم كتبه، وحمىٰ أعراضهم فلم يبح لأحد أن يستنقص من قدرهم أو أن يسيء الظن بهم، وغير ذلك من شكره لهم سبحانه وتعالى.

ولذكرهم في كتابه مزية أستشعرها دائما!

عبد من العبيد، خلقه الله بقدرته، لم يكن شيئا مذكورا، ثم يقول عنه:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾

﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ توقف قليلا، أكمل الآن: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ الملك العظيم يقول عن عبد من عبيده: نعم العبد!!

يا الله، ما أعظم كرمه إذا أراد أن يكرم!

وإذا نظرت إلىٰ شكره سبحانه لنبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام وكيف أنه قسم له رحمته ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ واختصه برسالته ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ وكان معه في جميع أدوار حياته ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ وجمله بأجمل الأخلاق ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

بل انظر كيف أنّه قرن اسمه باسمه في الأذان وفي الشهادة، قال حسّان:

وضم الإله اسم النبي إلىٰ اسمه
إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشقّ له من اسمه ليجلّه . . .
فذو العرش محمود وهذا محمّد

وهؤلاء الصحابة الذين بذلوا أرواحهم وأعمارهم وأموالهم نصرة للدين شكرهم بأن جعل الكلام فيهم من علامات النفاق،

ورضي عنهم، وضاعف أجر أعمالهم وعدّلهم جميعا بلا استثناء، وجعلهم خير القرون، وقال فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، والأحاديث في فضل عمومهم وأعيانهم أشهر وأظهر من أن تذكر، وكل هذا شيء من شكر الله لما قاموا به من تصديق وجهاد وبذل.

■ مثقال الذرّة

فكما يشكر الكريم من عمل معروفًا، فكذلك سبحانه وله المثل الأعلىٰ يشكر شكرًا يليق بكرمه وبعزّته وعظمته، شكرا لا كالشكر، فهو شكور لأن الشكر الواحد منه أعظم من كل شكر، وهو شكور لأن العمل الواحد منك يشكره المرة تلو الأخرىٰ، وهو الشكور لأنّه يشكر العمل الكبير والعمل الصغير بشرط أن يكون خالصا صوابا، فهو لا يشكر الأعمال العظيمة فقط بل حتىٰ مثقال الذرة منك يشكره وينمّيه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ فقد أدخل امرأة الجنّة بشق تمرة، وبغيًّا بأن سَقَتْ كلبا، وثالثًا كل حياته ذنوب فأمر أبناءه أن يحرقوه ويذروه بعد موته خوفًا من أن يعذّبه الله، فأدخله الجنة بأن خاف منه، ورابعًا ليس له إلا حسنة واحدة لأنّه تصدق بها علىٰ

صاحبه، وخامسًا قتل مئة نفس! لأنّه هاجر إليه . .

ومن شُكره سبحانه أن يعجّل بثواب المتصدق، فيرزقه بركة ويغدق عليه من نعمه، يخبرنا عليه الصلاة والسلام «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ صَدَقَةَ عَبْدِهِ بِيَمِينِهِ وَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ**»[١]، وهذا من شكره وفرحه سبحانه بطاعة عبده!

يخبرني أحد سكّان المنطقة الشرقية قبل عشر سنوات عندما كنّا واقفين عند متجر شهير عن قصة ذاك المتجر، يقول: كان صاحبه موظّفًا عاديًا يجمع من مرتّباته، وتجمّع زوجته من مرتّباتها كي يبنوا بيت العمر كما يقال، ولمّا شارف المبلغ أن يُجمع صلّىٰ الزوج في مسجد وسمع كلمة من أحد الدعاة حث فيها علىٰ بناء المساجد وأنّه «**مَنْ بَنَىٰ لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِيْ الْجَنَّةِ**»[٢] وقعت تلك الكلمة من الرجل موقعها، فانصرف من ليلته إلىٰ زوجته وأخبرها بنيّته أن يجعل كامل المبلغ في مسجد يبنيه، فإذا بزوجته تدفع له مالها عن طيب خاطر وتطلبه أن تشاركه في مشروع المسجد!

لك أن تتخيّل كيف تغيّر خطّتك التي بذلت لأجلها عرق

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٤١٠-٢/١٠٨)، ومسلم في صحيحه (١٠١٤-٢/ ٧٠٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٧٨٧-٢/ ٤٩٨).

سنين في ليلة! ويكون ذلك التغيير لله ﷻ ونابعًا من قلب حيّ يريد الله والدار الآخرة!

يقول صاحبي: بعد بناء المسجد أخذوا في الجمع من جديد ولعلّ فكرة التجارة قد طرأت علىٰ عقل الزوج فافتتح متجرًا صغيرًا، فإذا بالزبائن يأتون من كل مكان وإذا بالأموال تمطر عليه فوسّع الرجل متجره ثم بعد مدّة فتح له فرعًا ثم الثاني والثالث، يقول صاحبي: والآن له في المنطقة الشرقية فقط ثلاثة عشر فرعًا، وهذا الكلام قبل عشر سنوات، سبحان الشكور، سبحان من لا يخسر أبدًا من يتاجر معه.

لقيت رجلا قال لي إن اسمه فلان بن فلان الرحيلي، فقلت له ممازحًا: هل أنت صاحب محطّات الرحيلي الشهيرة في مدينة جِدّة؟

فقال لي: لا، ولكنّه قريبي!

ثم قال سأخبرك بقصّة الرحيلي هذا، كان في بداية حياته كثير الصدقة علىٰ الفقراء، وكان يعول الأيتام، وكان محسنًا علىٰ بعض أهله إحسانًا زائدًا، ثم فتح الله عليه فكانت له هذه المحطّة وغيرها من الأعمال التجاريّة الناجحة،هذا ما يعمله الشكور الحميد سبحانه.

■ أَنفق .. أُنفق عليك

يقول عليه الصلاة والسلام: «مَا نَقَصَ مَالُ مِنْ صَدَقَةٍ»[1]، يجب علينا أن نؤمن بهذا الكلام إيمانًا عميقًا، وهذا ربّنا يقول في الحديث القدسي: «يَا عَبْدِي أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»[2] فإذا وضعت ريالا في كفّ فقير فثق أن الله سيضع لك من فضله ما يوازي بل ويفوق ذلك الريال صحّة ورضا وعطاء وفضلا.

طالب جامعي فقير سمع وهو يسير لصلاة الجمعة رجلا يهتف بقرب صندوق التبرعات ويحث الناس قائلا: عبدي أَنفِقْ أُنفق عليك، فتش جيبه فإذا بثروته كلها خمسة ريالات، فأخرجها وأودعها صندوق التبرعات، كان في قلبه صوت اليقين يقول: لقد أنفقتُ يا ربي بفقري، فأنفق عليّ بغناك! في المساء زار أخاه فأخبره هذا الأخ (دون أن يعلم بحاله) أن جمعية مالية قد حلت في حسابه وهو لا يحتاجها كلها، وبعد ممانعة استقطع منها ألفين وأعطاها صاحبنا .. لقد أنفق الله عليه!

قرأت قديمًا في إحدىٰ المجلات قصة كتبتها صاحبتها: أن سائلا طرق بابهم في صباح يوم فأخرجت من محفظتها آخر مئة ريال وأعطتها ذلك السائل ..

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٩٥-٩/١١١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٨٤-٦/٧٣)، ومسلم في صحيحه (٩٣٣-٢/٦٩٠).

وكانت روحها تهمس: يا الله العشرة أضعاف، العشرة أضعاف ..

دخلت المطبخ وصنعت فطورا لها ولزوجها، استيقظ الزوج وجلس علىٰ المائدة وبينما هو يتناول طعام الإفطار إذ به يتذكر ويقول: هناك علىٰ تلك الطاولة ظرف لكِ استلمته البارحة من البريد، قامت الزوجة لترىٰ ما في الظرف، فإذا به شيك بنكي أجرة مقالة كتبتها في إحدىٰ الصحف ومن العجيب أنّها كانت: ألف ريال عدّا ونقدا!!!

■ وافعلوا الخير ..

وإنّي أعيذك أن تكون تعلّقاتك وإراداتك كلها دنيويّة، فكثير من الجزاء يدّخره الله لك أحوج ما تكون إليه في الآخرة ..

ومن أوضح صور الشكر الرباني هو ما اقترن ببر الوالدين من تيسير في العيش وتوفيق في جميع الشؤون، حتىٰ كأن النجاح في الحياة حصر علىٰ أصحابَ البرّ، يمكنك أن تستعرض من تعرفهم من الناجحين، ستجد بر الوالدين جامعا مشتركا بينهم، ولا بد!

يقول سبحانه: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ ..

ومهما كان هذا الخير صغيرا، فإن الشكور يشكره ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ لا بد أن يرىٰ جزاءه!

ومع أن الذرة لا تكاد تُرىٰ إلا أنّك إن فعلت خيرا بقدرها فإنّك ستراه يوم القيامة ينتظرك، ليبهجك به سبحانه ويربط علىٰ قلبك في يوم يجعل الولدان شيبا . .

عندما تحرص أن تطفئ نور سيارتك عند إشارة المرور حتىٰ لا تزعج من هم في الشارع المقابل، قد لا يعلمون بمقصدك، بل حتىٰ لا ينتبهون لفعلك، لكن احذر أن تظن أن الشكور لن يكافئك، كيف؟ لا يهم، من الممكن أن مرضا كان سيخطف بصرك، أو حادثًا كان سيتلف سيارتك، أو مشكلة كنت ستقع فيها وقاك الله منها شكرا لك علىٰ صنيعك النبيل.

حرصك علىٰ فتح الباب ليلًا بلطف حتىٰ لا تزعج النائمين . .

انتظارك وأنت ممسك باب المسجد لكبير في السن حتىٰ يدخل . .

تفاديك أن تدهس قطة عابرة . .

ابتسامتك لطفل . .

ترتيبك لغرفة في منزلكم . .

دعاؤك لمسلم مات، بسبب أنك متيقن أن لا قريب له يدعو له . .

إغلاق صنبور ماء كان غير محكم الإغلاق . .

رفعك غصنا ملقىٰ علىٰ الطريق . .

كل هذا من الخير ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ . .

■ اسكت ..

ومن أجلّ وأحسن الخير أن تمسك المصحف لتلاوة وِردك، ثم تقع عينك، بل يقع قلبك علىٰ خير يحثك الله علىٰ فعله فتضمر في نفسك ألا ينقضي يومك ذلك إلا وقد أتيت منه ما استطعت، إنك بذلك تفعل أعظم ما يمكنك فعله، إنك تفعل الشيء الذي لم ينزل الله القرآن إلا لتفعله!

أمّا إن سألت عن أعظم خير يمكنك فعله، فهو أن تسلم وجهك لله! أن تحيا مسلما، وتعبد الله مسلما، وتعامل الناس مسلما، وتنظر وتتكلم وتشعر مسلما، ثم تموت مسلما!

سئل الإمام أحمد: من مات علىٰ الإسلام والسنة، مات علىٰ خير؟ فقال لسائله: اسكت، بل مات علىٰ الخير كله!

يقول سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ . .

أي خير تقدّمه لنفسك، ستجد أن الشكور الحفيظ حفظه ونمّاه فتأتي يوم القيامة تجده عنده موفورًا قد عظُم وبات أكبر من يوم أن فعلته!

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾.

وفي الأثر الضعيف المتن الحسن المعنىٰ: «**صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ**»[1] وهذا من شكره، فلم يضيّع صنيعك الحسن بل سيجعله وقاء لك عن أن تموت ميتة سيئة!

لذلك فشعور أنّه سبحانه الشكور وأنّ الخير كلّه منه يجعل العبد علىٰ ثقة بربّه محسنا الظن به سبحانه.

■ إلىٰ أين؟

قيل لأعرابي: إنّك تموت! فقال: ثم إلىٰ أين؟ قيل: إلىٰ الله! فقال: كيف أكره أن أقدِم علىٰ الذي لم أر الخير إلا منه؟

شعور عظيم ورجاء بالله كبير ذلك الذي يملأ فؤاد هذا الأعرابي، يقرّه عليه القرآن الكريم حين يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٠١٤-٨/ ٢٦١).

كل شيء؟ نعم كل شيء يحوطك من الصحة والمال والراحة والتيسير والرضا هو منه ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ . .

تعبده ستين أو سبعين سنة، أكثرها دون التكليف أو نوم أو في عمل المباحات، ومع ذلك يكافئك عنها بجنّة عرضها السماوات والأرض، تسكنها الأبد كله!

فإن كان سبحانه يعطي لا علىٰ شيء، فكيف إذا كان هناك شيء؟ كيف إذا فرقت بينك وبين بقيّة عباده الذين يرزقهم ويتحبب إليهم بالنعم بأن عملت صالحًا يرضاه، عند ذلك لا يجوز لك أن تعتقد أن لن يكرمك الكريم ويشكرك الشكور ويحمدك الحميد سبحانه.

■ انتشال

ثلاثة يلجئهم المطر إلىٰ غار فيصبحون وقد أطبقت صخرة عظيمة بابه فلا يستطيعون الخروج، فيبتهلون ويتوسلون إلىٰ الله بصالح أعمالهم، فيكون شكره لهم سبحانه بأن يجعل مكافأة العمل أو جزءا من مكافأة العمل جزءا من تفريج ذلك الكرب وزحزحة تلك الصخرة العظيمة، وما إن انتهىٰ ثالثهم حتىٰ انفرجت الصخرة وخرجوا يمشون في الشمس!

يبذل عيسىٰ عليه السلام عمره له سبحانه، منذ أن نطق كلمته

الأولىٰ في المهد وهو عبدلله، فيتآمر ضدّه شرار بني إسرائيل ليقتلوه، فيكون شكره له سبحانه من أغرب الشكر، رفعه إليه! هكذا انتشله من بؤرة الهم والمكائد والقلق، وجعله في سماواته يعيش مع ملائكته وخيار خلقه ..

إنك مع الله في ربح دائم ..

والله هو القادر علىٰ انتشالك مما أنت فيه، أعلم جيدا أن لديك من الهموم والكروب ما لا يتناسب مع النجاة منها إلا لفظة (انتشال)، اعمل الخير، لينتشلك الله به، كما كان تسبيح يونس سبب انتشاله من بطن الحوت.

إنّك تتاجر مع ذي الكرم المتناهي وذي الشكر المتناهي وذي الفضل المتناهي.

ليست هناك احتماليّة خسارة في سوقٍ اللهُ من يسيّر أمرها، فكن معه ثم ارقب أفضاله وشكره .. لن يتركك، ثق بذلك، لن تسجد لله سجده إلا ويشكرك عليها شكرا يليق به وبكرمه، فقط كن معه.

اللهم أوزعنا أن نشكر نعمك .. واجعلنا لك ذاكرين، ولنعمك شاكرين .. واهدنا لأعمال تجزل لنا عليها الشكر يا شكور يا حميد.

الجبَّار

كلّما انطفأ حلم خلق الله لك حُلما أجمل ..

وكلّما بهتت في قلبك ذكرىٰ صنع الله لك ذكرىٰ أروع!

الجبّار

هل هشّمتك الظروف؟ وتواطأت ضدّك الكروب؟ وتكالبت عليك الأزمات؟

هل غيّر الفقر ملامحك؟ وأجدبت الأمراض حقولك؟ وجعلك اليُتم تبدو ضئيلًا؟ وأحاطت بك النظرات المُهينة؟

روحك المنكسرة، قلبك المهشّم، أنفاسك الضعيفة تحتاج إلىٰ من يجبر التهشّم والضعف والانكسار؟ لماذا لا تتعرّف علىٰ اسم «الجبّار» لتجبّر بمعانيه الرحيمة كسورك؟ وتضمّد بظلاله جروحك؟ وتهدّئ بنسائمه عواصف روحك الهوجاء؟

■ قلبك المهشّم .. كيف تهشّم؟

من معاني اسم الجبّار: الذي يجبر أجساد وقلوب عباده.

فالعيش في كنف الإله يمدّنا بمراهم الصحة، وضمادات السعادة، ومسكّنات الأوجاع، ومضادّات الهموم.

فهو سبحانه علم أن كسورًا ستعتري عباده في أبدانهم

وقلوبهم وحياتهم، كسورًا تترك ندوبها علىٰ جباههم، وآثارها علىٰ أرواحهم، لذلك تولّىٰ جبرها برحمته، وسمّىٰ نفسه بالجبّار، ليعلّم عباده أنّه هو القادر علىٰ جبرها فيلتجئون إليه.

انكسارات الحياة عديدة:

حادث تتكسّر فيه العظام، إهانة تتحطّم منها النفس، فقر تنحني معه الروح، مرض تنهار عنده القوىٰ، عقدة تحاصر الطُموح، رُهاب يخنق عفويّتك، كُره تتمرّد معه أحاسيسك، ظروف تجعلك تنكّس رأسك!

وبقدر هذه الانكسارات تتفتّح أبواب السماء بضمادات الرحمة ومجبّرات الودّ!

كم من يتيم تكسِّر نفسه نظرة صاحبه المتغطرس، ولولا الجبّار لتحطّمت نفسه للأبد.

وكم من ضعيف صفعته الحياة بيد أحد الأقوياء، لولا الجبّار لظلّ منحني الرأس طول الحياة.

وكم من فقير أذلّته كلمة قالها له أحد الأثرياء، لولا الجبّار لبقيت تلك الكلمة وصمة يعيّر بها طيلة عمره.

يجبر الكسير، ويساعد الضعيف، ويرفع من شأن الصغير، ويقدّم المتأخر، تضمّد رحماته جراح النفوس ..

نعرف نحن أشخاصًا عانوا من شدّة آبائهم ومع ذلك خرجوا غاية في الرحمة!

عانوا من سخرية أقرانهم، ومع ذلك صاروا متميّزين ناجحين!

عانوا من الأنيميا، والسل، وحساسية الصدر، وكبروا فصاروا أصحاء أقوياء!

أين تلك العقد، وأين آثار تلك الأمراض؟ لقد جُبرت، لقد أذهبتها ضمادات الرحمة، لقد قدّر الجبار أن تختفي ..

■ واجبرني

شُرع لنا أن نقول بين السجدتين: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي وَاجْبُرْنِي**»[1].

(واجبرني)! وكأننا نتكسّر في اليوم كثيرًا فنحتاج أن يجبرنا الله كثيرا!

قبل حوالي ثماني عشرة سنة ماتت ابنة أختي الوحيدة بين يديها، صرخت صرخة اختناق سمعتُها من الغرفة المجاورة، كانت الصرخة الأخيرة! فدخلتُ علىٰ أمّها قبيل الفجر وفي قلبها

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٨٤-٢/٧٦)، وابن ماجه في سننه (٨٩٨-١/ ٢٩٠).

من الحزن والانكسار ما نمّت عيناها وتنهداتها به،فأرشدتها إلىٰ الدعاء الوارد «**اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا**»[1] فقالت ذلك الدعاء وصوتها يتهدّج من وقع المصيبة، فارتفعت كلماتها المنكسرة إلىٰ من يجبر قلوب عباده فعوّضها عن ابنتها اليوم ببنين وبنات رزقها الله برّهم وأفضل عليها وعلينا من عطاءاته.

إذا التهبت نفسك، إذا احترقت أحلامك، إذا تصدّع بنيان روحك فقل: يا الله . .

■ واحلل عقدة من لساني

في العام الفائت التقيت طالبًا لديه عُقدة في لسانه، لا يكاد ينطق بكلمة دون أن يعيدها عدّة مرات! أمسكته ونصحته ألاّ يسجد سجدة لله إلا ويدعو: واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . .

التقيته هذه السنة فإذا به كأفصح ما يكون، سألته -وقد نسيت نصيحتي- عن السبب، فقال: دعاء واحلل عقدة من لساني!

لقد حلّ الجبار تلك العقدة . .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٩١٨-٢/ ٦٣١).

إنّه الجبّار، ما من أسىٰ إلا وهو رافعه، وما من مرض إلا وهو شافيه، وما من بلاء إلا وهو كاشفه . .

تتزاحم الآلام في قلب العبد حتىٰ ما يظن أنّ لها كاشفة، فإذا بالجبّار يجبر ذلك القلب، وبعد أشهر ينسىٰ العبد كل آلامه وأوجاعه لأن الله لم يذهبها فحسب،بل جبر المكان الذي حطّمته، فعاد كأن لم يتهشّم بالأمس!

يجبر القلوب والعظام والنفوس ويقدر أن تتداوىٰ الجراح، وتُكفكَف الدموع سبحانه.

إذا رضّتك الهموم، وغشيتك الكروب . . فلا تطل البكاء، سجّادة توجّهها إلىٰ القبلة، تقضي علىٰ تلك الهموم والكروب في لحظات بإذن الله!

■ يحبك مبتسمًا

جلس بانكسار بعد صلاة المغرب يستغفر الله، جيبه خاوٍ إلا من ريالات لا تصنع أمام احتياجات الحياة شيئًا، يكاد الناظر إليه من بعيد يدرك مدىٰ الفاقة، وكميّة الخدوش المتناثرة في نفسه، ولكن الجبّار كان ينظر إليه من أعلىٰ سماواته، فما كتب عليه تلك الليلة أن ينام إلا وقد سدّ فاقته بما لم يكن يتوقّعه أو يتخيّله!

يحبّك سبحانه مبتسمًا، فيصنع من جميل أقداره ما يعين ثغرك على الافترار، ويجعل الابتسامة تطرد ملامح الكرب عن وجهك.

إذا رأيت منكسرًا فاجبر كسره، كن أنت الذي يستخدمك الله لجبر الكسور، لا تنم وجارُك جائع، لا تضحك وأخوك يبكي، لا تنعم بدفء بيتك وهناك من هدهدت رياح الشتاء أبدانهم الضعيفة.

■ العربة ..

يقول صاحبي: رأيت عجوزًا تدفع عربة بقرب الحرم مليئة بالحاجيّات، كانت السنوات قد شقّقت جلدها بما فيه الكفاية، رأى فيها أمّه، فبكى كل شيء فيه، وكان آخر ما بكى عيناه، أخرج كل ما في جيبه ودسّه في يدِها ونفسُه تكاد تسقط من الحزن على تلك المسكينة ..

يقول: لم يدُر في خَلَدي أني أتكرّم عليها، أو أن الشكور الحميد سيشكرني، كنت فقط أرتق شرخًا جلبته صورتها المنكسرة في نفسي، ولم أفلح!

لم يمض ذلك الشهر إلا وأضخم مبلغ يحصل عليه في

حياته مودع في حسابه البنكيّ!

لن يدعك الله تجبر كسور الضعفاء ثم لا يشكرك، فهو الشكور الحميد ..

كن بلسمًا إن كان (حالك) أرقما
وحلاوة إن صار غيرك علقما

كن النافذة التي يتسلل منها الهواء الشفيف علىٰ النفوس التي خنقتها أدخنة الحياة الصعبة، تخلّق بخلق الجبر، كن اليد العليا.

يزور النبي ﷺ اليهودي المريض!

يكنس أبو بكر رضي الله عنه بيت العمياء ويطبخ لها طعامها!

يموت عبد الله بن المبارك فيفقد الفقراء تلك الأرزاق التي كانت توضع عند أبوابهم قبيل الفجر، فيعلمون بعد موته أنّها منهُ!

يموت أحد خصوم ابن تيمية فيبشّرونه بذلك، فيغضب ويذهب مباشرة إلىٰ أهله وأبنائه فيعزيهم ويقول لهم: أنا كوالدكم، لا تحتاجون شيئًا إلا وأخبرتموني!

كانوا منشغلين بالمهمّة العظيمة، مهمّة جبر القلوب المنكسرة، كان الله يستخدمهم لذلك الشرف العظيم ..

■ ٨٣

أخبرني صاحبي وقد كان طالبًا في جامعة أم القرىٰ أنّه وفي طريقه إلىٰ الجامعة لقي معتمرًا يسأله عن مركز الشرطة، أخبره صاحبي أنّه مستعجل فموعد مادّة النقد قد شارف علىٰ البدء والتي كان الأسبوع القادم هو موعد الاختبار (الصعب) فيها، ومع ذلك فقد أركبه ليقرّبه من وجهته، وفي السيارة أخبره أنه وقبل ثلاثة أيام فقد في الحرم محفظته وجوّاله وجواز سفره وكل ما يثبت شخصيّته، أصبح مجهول الهُويّة، لا يستطيع الأكل ولا المبيت ولا التواصل مع أحد! قال ذلك المعتمر لصاحبي: لقد تعبت -وعند هذه الكلمة بالذات أجهش بالبكاء- ثلاثة أيام وأنا أتكفف الناس وأنام في الشوارع .. كان منكسرًا بدرجة كبيرة!

يقول صاحبي إنّه واساه، وذكّره بالله، وقال له: إنّ الله لم يُفقدك هذه الأشياء في الحرم حتىٰ تذل لغيره، فقط اسجد له واطلبه وسوف يحبوك، ثم أعطاه ثلاثة وثمانين ريالًا، هي كل ما وجده في جيبه، وأنزله وقد رأىٰ ملامح الابتسامة علىٰ ثغره ..

بعد أسبوعين ظهرت درجة اختبار مادّة النقد والذي لم يحلّ فيه أي فقرة لصعوبته، وقد وطّن نفسه علىٰ الرسوب فيها لأنه يستحق فيها الصفر! فإذا بها ثلاث وثمانين درجة من مئة! عدد الريالات التي أعطاها ذلك المعتمر باتت عدد الدرجات التي

نالها في الاختبار! بلا زيادة ولا نقصان!!

نعم، أشياء كلّما حاولت أن تنكر وجودها، ظهرت بشكل أوضح وأصرح، كلما قررت ألا تسمعها صرخت بصوت أكثر إذهالا وإدهاشًا، إنّه الله يا صاحبي إنه الله . .

لمّا استعمله الله في جبر كسر ذلك المعتمر شكره . .

❁ ❁ ❁

▪ حجرة الخادم

إذا طرقوا أبواب الملوك، فاطرق أنت باب الملك الأعظم . .

إذا وقفوا بذل بساحة أمير، فقف أنت بساحة الإله الأكرم . .

إذا سافروا من مستشفىٰ إلىٰ مستشفىٰ، فقم بالليل وقل: يا الله . .

بيده مفاتيح الفرج، الشفاء له خزينة عظيمة القدْر والحجم، أتعلم أين هي تلك الخزينة؟ إنها عند الله!

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾

السعادة كذلك لها خزينة،الأمان أيضًا، والراحة، والرضا، أتترك من بيده ملكوت كل شيء، وتنصرف إلىٰ عبد لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا؟

كم هو مضحك أن يترك زائر ملِك من ملوك الدنيا الانشغال بالحديث مع الملك ليدخل إلىٰ حجرة الخادم ويتحدّث إليه!

نحن نفعل ما هو أكثر إضحاكًا من هذا حين نترك مناجاة ملك الدنيا والآخرة سبحانه وطلبه ما نريد ونذهب في رحلة علاجيّة إلىٰ واشنطن أو انجلترا ونعود بعد أشهر معنا الخيبة والخسارة!

والكلام ليس عن طلب العلاج، فهو مشروع، بل عن التعلّق بالمخلوق، ونسيان الخالق ..

■ الحلم .. والذكرىٰ

عش أياما مع الجبّار، أمِرّ معانيه الجليلة علىٰ جروحك، اجعلها البلسم لعذابات روحك، أيقظ بها أزاهير الفرح في نفسك، اصنع بتأملاتك فيها شمس حياة تقضي علىٰ الخواء الذي كنت تعيشه.

ينزل رسولنا ﷺ من الطائف محمّلا بقدر عظيم من الحزن والحرقة والانكسار، بعد أن أدمىٰ السفهاء عقبيه الشريفتين بالحجارة، يراه ملك الملوك، ملك الدنيا والآخرة، يراه حبيبه سبحانه، يرىٰ قلبه المكتظ بالآهات، فيرسل جبريل ومعه ملك

الجبال، لينهي تلك الحُرَق، يرسله في مهمّة خاصة، مهمّة تتعلق بدكدكة الجبال الراسية!

فينظر ملك الجبال إلىٰ النبي ﷺ وهو في أحزانه التي جعلته يمشي من الطائف فلا يفيق إلا بقرن الثعالب، فيقول: أمرني الله أن أمتثل لأمرك يا محمد، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت![1]

إذا أراد أن يجبر كسرك، أهْلَكَ مدينة بأكملها لأجلك!

ولكنّ محمدًا عليه الصلاة والسلام يستأني بهم ويعفو عنهم . .

عندما لذعت السخرية بسياطها الحارقة قلب نوح، نظر إلىٰ السماء ودعا ربّه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، ففتح الملك سبحانه أبواب السماء بماء منهمر، أغرق الكرة الأرضية لأجل نوح عليه السلام!!

هل يستطيع غير الله أن يجبر كسور الروح بمثل هذا؟

بعض الأشخاص يظنون أن من مهماتهم تدميرك، السخرية بك، إظهارك بحجم صغير جدًّا أمام رفاقك! ولولا الجبّار لطحنتك مكائدهم . .

---

(١) أخرج أصل القصة البخاري في صحيحه (٣٢٣١-٤/ ١١٥)، ومسلم في صحيحه (١٧٩٥-٣/ ١٤٢٠).

يدخلون إلىٰ عينيك ليسرقوا أجمل أحلامك .. ويتسللون إلىٰ قلبك ليمسحوا أروع ذكرياتك! وكلّما انطفأ حلم خلق الله لك حلما أجمل، وكلّما بهتت في قلبك ذكرىٰ صنع الله لك ذكرىٰ أروع!

■ فنجان قهوة!

وقد زوّد الجبار حياتنا بمجبّرات ومضمّدات وأدوية، نعلم بعضها، ونجهل أكثرها خلقها وأودعها في كونه لأجلك، حتىٰ تبتسم، وتعيش حياة كريمة، حتىٰ تتفرّغ لعبادته.

تلتئم جروحنا عندما نتناول الدواء الناجع لها، وعندما نأكل الطعام الصحّي، وعندما نشرب الماء النقي.

تصحّ أرواحنا لمّا نرىٰ الابتسامة علىٰ أوجه الآخرين، وحين نشعر بأكفّهم تربت علىٰ أكتافنا، وعندما نسمع الكلمة الطيبة.

نتجاوز عقدنا عندما نصادف قلبًا ينبض بحبّنا، ويدا تمتدّ لمساعدتنا، وفنجان قهوة نرتشفه بمعيّة من نحب.

هناك أشياء تلتئم داخلنا عندما ننظر للطبيعة الجميلة، ونسمع خرير الماء، ونحدّق في العصفور وهو يُطعم فراخه.

الصلاة تردم هوّة اليأس في أرواحنا، وسبحان ربي العظيم تخلق فرحًا نجد طعمه في ألسنتنا، وسبحان ربي الأعلىٰ تحلّق بنا حول العرش.

دعوات الوالدة دفء في شتاء الحياة، وزيارة الصديق متعة في صخب العيش، وسؤال الجار عنك يلوّن لوحة نفسك الرماديّة.

عصير البرتقال يجبرك علىٰ الابتسامة، وقطعة الحلوىٰ التذاذ خاص، والحمّام الدافئ شعور بانحسار الأتعاب.

الحياة مليئة بالمجبّرات، وربنا يريدنا أن نسعد، أن نبتسم، أن نحيا حياة جميلة

■ كن ساجدًا

ما الذي يبطّئك عن الله؟

ما الذي يجعلك تتأخر عن الانضمام لركب الأوّاهين الأوابين، الذين يرتّلون كلامه في جوف الليل؟

شكل الجنين في بطن أمه قريب جدا من شكل الساجد لله!

فكن في حياتك ساجدًا كما كنت في بطن أمك، يكفيك الله رزقك ويجعل أضيق الأماكن أهنأها، ويحيطك برحمته.

كن ساجدًا بقلبك، وإن رفعت رأسك.

قل بنبضاتك: سبحان ربي الأعلىٰ، وإن كنت ضاحك الثغر.

اهمس بشرايينك: يا جابر المنكسرين اجبر كسري، ثم تأمّل في المعجزة وهي تشكّل روحك من جديد!

اللهم اجبر كسر قلوبنا، وكسر أرواحنا، وكسر أجسادنا، إنّك علىٰ كل شيء قدير.

الهادي

لا يهديك لأنّك فلان ابن فلان، بل لأنّه شاء أن يهديك!

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

الـهـادي

هل أكلتك الحيرة؟ هل تشعر أن عقلك أعجز من أن يحدد لك الصواب من الخطأ، هل عُرضت عليك وظيفتان لا تدري أيّهما أنسب لك؟ هل تزاحمت في عقلك مميزات فتاتين لا تدري أيهما تتزوّج؟ بل هل تعبت من درب الضياع وتريد أن يمنّ الله عليك بأن يدلّك إلىٰ طريق النور والهداية؟ أنت إذن مهيّأ لبداية عهد جديد مع اسم الله «الهادي» . .

أنت تحتاج أن تتعرّف إلىٰ هذا الاسم العظيم، أن تسترشد الهادي سبحانه ليوقف في نفسك جيوش الحيرة، ويهديك إلىٰ الصراط المستقيم!

■ دفء

الهداية أصلها اللغوي يدل علىٰ الميل، وكأنّ الهداية ميل عن الخطأ إلىٰ الصواب وعن الضلالة إلىٰ الرشد وعن التيه إلىٰ الجادّة.

فهو سبحانه يهديك، فيحرف مسارك عن الضلالة إلىٰ الرشد، وعن الغواية إلىٰ الطريق الأقوم.

وكما أنّه يهديك، فكذلك يهدي إليك!

فيوصل الأشياء التي بها قوام حياتك إليك: يوصل الماء إلىٰ الأرض التي تقطنها، ويوصل الغذاء إلىٰ المكان الذي تعيش فيه، ويوصل الهواء إلىٰ رئتيك ..

وهو يهدي جميع خلقه هدايات متعددة بحسبهم وبحسب أحوالهم:

فالأعمىٰ هدايته أن يسير علىٰ الطريق، وهداية الأصمّ أن يفهم ما يقال، وهداية العاجز أن يصل إلىٰ مبتغاه ..

هداية الطفل أن يبعده عمّا يضرّه ..

وهداية العجماوات أن يغرز في نفوسها ما فيه قوام حياتها، فتعلم مصالحَها فتأتيها، وتعلم مضارّها فتجتنبها، وتعلم المخاطر فتقاومها.

يهدي التائهين في الصحاري ..

ويهدي القارئ إلىٰ موضع المعلومة ..

ويهدي المكتشف إلىٰ الاختراع ..

ويهدي المجتهد إلىٰ دليل المسألة ..

ويهدي الداعية إلىٰ الأسلوب الأسلم ..

ويهدي الأب إلىٰ الطريقة المثلىٰ في نصح ابنه ..

■ ليست صُدفة!

يهديك بما تظنّه صُدفة: يهديك بآية تسمعها في صلاة، ويهديك برؤيا تراها، ويهديك بنصيحة عابرة، ويهديك بكلمة تقع عينك عليها في كتاب، ويهديك بتأمّل، ويهديك بومضة غير مسبوقة بتفكير، ويهديك بظروف تدفعك إلىٰ الصواب، ويهديك بالخوف، ويهديك بالحب، ويهديك بالموت!

أما سماع القرآن فأصل الهدايات، ومن أعظم ما جعله الله سببا لهداية عباده، فقد ضمّن فيه كل أسباب الهداية والرشد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ فيستحيل علىٰ عالمٍ عاملٍ بما في القرآن أن يصاب بزيغ أو انحراف أو نكوص!

وقصّة إسلام عمر بن الخطاب معروفة، فقد دخل علىٰ أخته والشرّ يتطاير من عينيه فلمّا قرأ في صحيفة معها أوّلَ سورة طه، سجد قلبه في محراب الإيمان ولم يرفع حتىٰ مات رضي الله عنه ..

تُرىٰ ما هو الشعور الذي شعر به؟ وما هو اليقين الذي نزل قلبه في تلك الساعة؟ وكم في القرآن من هدايات غضضنا عنها

طرف التدبّر، وكم فيه من إرشادات انقفلت عنها قلوبنا؟

■ لا .. ولا

ومن أشكال الهداية أن ترىٰ رؤيا فيها شفاؤك أو تحذير لك أو إرشاد، يقال إن أحدَهم كان مريضًا فرأىٰ في منامه أن علاجه في «لا» و«لا»، فذهب إلىٰ شيخ يسأله فقال لا أدري ولكنّي أختم القرآن كل يومين، فأمهلني لعلّي أجد شيئًا في القرآن أعبّر به رؤياك، وبعد يومين جاءه وقال له شفاؤك في زيت الزيتون، قال تعالىٰ في سورة النور: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾ فهذه هداية برؤيا.

ومن أنواع الهداية التي تشبه الهداية بالرؤىٰ لما فيها من معنىٰ الاستنباط والاستدلال بالشبيه علىٰ شبيهه .. الاستشفاء بعمل طاعات لها صفة قريبة من حال المرض!!

جاء رجل إلىٰ أحد العلماء يشتكي الاستسقاء وهو مرض تتجمّع بسببه السوائل في جسم الإنسان وقد يودي بحياته، فأوصاه أن يحفر بئرًا ويوقفها، فحفر البئر فبرئ بإذن الله!

رأىٰ هذا العالمُ تشابهًا بين انحباس السوائل في الجسد وانحباس الماء في الأرض، فظنّ أن هذه الطاعة (حفر بئر)

مشابهة لحال المرض، وأن الشفاء قد يكون فيها ..

أحد الزملاء يخبرني أنّه دَهس ابنة أخيه ذات العامين بسيارته (الجيب) وهو ذاهب إلىٰ الصلاة دون أن يدري، فهُرع بها والدها إلىٰ المستشفىٰ والموت يلوح بين عينيها، والأطباء يخبرونه بأنّ نسبة موتها ثمانون في المئة!

فاتّصل ابن عمّ لهم بزميلي مستخبرًا وناصحًا، وأوصاه بسرعة ذبح شاة والتصدق بلحمها بنيّة الشفاء! ففعل ما أوصاه به ابن عمّه فلم يأت الفجر إلا وقد أخرجت تلك الطفلة من العناية الفائقة!!

هدىٰ الله سبحانه ابن العم إلىٰ تناسب ما بين اللحم المتصدّق به، ولحم الطفلة المتهتّك، فكان الشفاء من الله أصدق من توقعات الأطباء!!

أما الهداية بنصيحة عابرة: فيقال إنّ مغنيًا كان حسن الصوت مرّ به أحد الصالحين فقال له: ما أجمل صوتك، يا ليته تَغنّىٰ بالقرآن، فتاب ذلك الرجل من حينه!

والهداية بالنصيحة أوسع وأوضح من أن نمثّل لها ..

وقد يهديك بالتأمّل، ومن أوضح شواهد هذه الهداية قصّة سيدنا إبراهيم عليه السلام والذي عندما جَنّ عليه الليل رأىٰ كوكبًا،

والقصّة معروفة فهنا تأمّلات في آيات الكون سببت هداية ويقينًا له عليه الصلاة والسلام.

■ قبس من نور

يبصر من عليائه التائهين، يرىٰ هضاب الضياع وقد التفت من حول أرواحهم، فيشعل لهم في الليل قبسًا من نوره، فيرون به الطريق! ويصِلون إلىٰ الجادّة.

لا يهديك لأنّك فلان ابن فلان، بل لأنّه شاء أن يهديك! ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فتعرّض بإصلاحك قلبك إلىٰ تلك المشيئة الغالية.

قد يهديك ثم لا تقوم بواجب تلك الهداية من شكر وعمل بمقتضاها فيسلبها منك، مثل ذلك الرجل الذي آتاه الله آياته ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾!

وقد يهديك فتشكره وتعمل بمقتضىٰ الهداية فيمنّ عليك بهداية أخرىٰ فتشكره وتعمل بمقتضاها ثم يفضل عليك بهداية ثالثة ورابعة، ويجعل حياتك هدايات يمسك بعضها ببعض . .

فهؤلاء فتية الكهف هداهم بأن جعلهم مؤمنين، ثم هداهم أيضًا بأن جعلهم صابرين علىٰ إيمانهم، ثم هداهم بأن دلّهم علىٰ

طريق النجاة، ثم هداهم بأن هيأ لهم حالًا أنجاهم بها؛ بأن ضرب علىٰ آذانهم في الكهف سنين عددا، قال عنهم سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾.

■ بوصلة ضائعة

في وسط الصحراء المظلمة، لا تعلم أين تتوجّه، وعدم معرفتك هذه تعني الموت المحتّم، لأنّك بلا زاد ولا راحلة، وفجأة تجد شعورًا ملحًّا يأمرك أن تتجه إلىٰ اتجاه معيّن، ليس لديك معرفة بالنجوم، وبوصلتك ضائعة، ورفاقك سبقوك! فتتجه إلىٰ ذلك الاتجاه، وبعد تلاعب كثبان الصحراء بك، وإذ بعينيك تلمحان بصيص نور، إنّهم رفاقك هناك، في آخر نقطة من الحياة ينتظرونك بلهفة!

الآن حدّثني عن ذلك الشعور؟ ما هي المعادلة التي جعلته يبزغ في تلك اللحظة؟ ولماذا جاء؟ وكيف كان دقيقًا إلىٰ هذه الدرجة؟

لقد كان الله في تلك اللحظة يبصر اضطراب الرعب في قلبك، لقد كان يسمع وجيف فؤادك، لقد علم تمثّل الموت عطشًا في نفسك، فأذِنَ لوميض داخليّ أن يشتعل لتحس بالطريق، وتصل بسلام.

لا تتعلّق بحرفيّة التجربة، فقد لا تكون عشتها، ولكنّك ولا شك عشت أنت أو من تعرفه أجواء قريبة من تلك الأجواء، والسؤال الأهم من جميع التفاصيل: من الذي قذف الهداية في روح قلقة، محتاجة إلىٰ بصيص؟

إنّه الهادي سبحانه ..

وإذا العناية لاحظتك عيونها
نم فالحوادث كلهنّ أمانُ

وفي وسط تلاعب الموج بسفينتك، يأمر الريح فتكون شماليّة في تلك الساعة لأنّ جزيرة النجاة في الجنوب منك ستتمزّق أشرعة سفينتك لولا تلك الرياح التي قدّرها الهادي سبحانه.

يخرج ابن تيمية من بين البيوت وقد ازدحمت الأقوال في رأسه حول تفسير آية، يقرأ عنها عشرات التفاسير، فلا تخلصه تلك التفاسير من ضوضاء الحيرة، فيمرّغ وجهه بالتراب ويبكي ويقول: «يا معلّم داوود علمني ويا مفهّم سليمان فهّمني» فيعود وقد تحددت الأقوال الراجحة في عقله بنور الهداية الربانيّة!

إذا لم يكن عون من الله للفتىٰ
فأوّل ما يقضي عليه اجتهادهُ

■ ثم هدىٰ

وهدايته سبحانه لا تختص بالبشر بل هو يهدي جميع خلقه، قال جلّ من قائل: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ . .

يصف الشيخ محمد راتب النابلسي شيئًا من هذه الهدايات فيقول: «يتجه سمك السلمون من سواحل الأطلسي إلىٰ مصبات الأنهار في أمريكا، ويضع بيوضه ويعود، بعد أشهر تخرج الأسماك الصغيرة وتتجه مباشرة إلىٰ حيث أمّهاتها؟ علىٰ بعد مئات الكيلوات! لا تضيع طريقها، من الذي هداها إلىٰ الطريق؟ إنه الهادي سبحانه!

أحدهم رأىٰ قنفذًا يأكل أفعىٰ ميّتة ثم يتوجّه إلىٰ نبتة فيأكل منها ورقة، ثم يعود للأفعىٰ فيقضم ثم للنبتة فيأكل، أراد ذلك الشخص أن يعلم سر تلك النبتة فاقتلعها، عاد القنفذ ليأكل ورقة من النبتة فلم يجدها فلبث يسيرا ثم مات!

من الذي هدىٰ هذا القنفذ إلىٰ أن تلك النبتة تحمل خاصيّة مضادّة للسم الموجود في جسم الأفعىٰ؟ إنه الله جل جلاله» . .

يهجم الذئب علىٰ الغزال فتحني الغزال رأسها لينغرز قرنها في رقبة الذئب، من الذي أعلمها أن فوق رأسها سكينًا حادة،

ومن الذي جعلها تعلم أنها بذلك الفعل ستنجو؟ إنه الهادي سبحانه . .

رأيت في طفولتي قطّتنا وأبناءها حديثي الولادة يزحفون إليها عُميًا، ثم يغرسون رؤوسهم في بطنها ويتحسسون بأفواههم حتىٰ يجدون ثديها ويبدؤون بشرب الحليب، من الذي أخبر تلك الكائنات عديمة الخبرة والمعرفة أنها بذلك ستعيش وبدونه ستموت؟ إنه الهادي سبحانه . .

■ المستنقع

ومن أعظم هداياته إعادة خلقه إليه، ودلالة التائهين عليه، وفتح أبواب التوبة لمن أذبل أرواحهم خريف الحوبة.

يخرج في ظلام الليل، ليعصي ملك الملوك، كل جوارحه مندفعة للوصول إلىٰ وحل المعصية، ولكن الله في تلك اللحظة الحاسمة يأمر الهداية أن تصل إلىٰ قلبه قبل أن يصل هو إلىٰ المستنقع، فإذا بكل ما بناه من أحلام سوداء ينهار فجأة، وتيّار فظيع يرجف به، كل شيء يتطاير من حوله، هناك شعور بكر وطئ للتوّ ساحته، يلتفت إلىٰ جهة أخرىٰ، ليست جهة المستنقع إنّها جهة تطلّ من بين منحنياتها منارة المسجد، فيبدأ عهدًا مضيئًا مع الهادي سبحانه.

■ ورقة!

إذا أراد هدايتك، جعل ورقة ملقاة علىٰ الأرض تعيدك إليه!

مما يذكر أن رجلا كان يترنّح في سكك مدينته مخمورًا، فرأىٰ بعينين أذبلتهما الخمرة ورقة ملقاة، كُتب عليها اسم الله، فاعتصر فؤاده حبّا وحزنًا، وقال باكيًا: اسم الله علىٰ الأرض!فحمل تلك الورقة وذهب إلىٰ بيته فنظّفها وعطّرها وقبّلها ورفعها، ثم نام ليسمع هاتفًا يقول له: رفعتَ اسمي؟ وعزّتي لأرفعنّ اسمك، فإذا به يستيقظ علىٰ الهداية تملأ قلبه، ويتحوّل من رجل لا هدف له من هذه الحياة إلىٰ رجل من الصالحين المعروفين في التاريخ!!

وإذا أراد هدايتك أسمعك صوتًا يقول لك: اتق الله، فيستيقظ فؤادك!

فهذا أحد الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار في القصّة النبويّة الشهيرة، يحضّر من وقت بعيد للفجور بابنة عمّه، وتسوقها الأقدار إليه في حاجة فيبتزّها، وقبل لحظات من بدئه لمراده البشع، إذ بها تقول: اتق الله ولا تفضّن الخاتم إلا بحقّه، فينهض فزِعًا، لم تدع «اتق الله» في قلبه شهوة إلا وسحقتها!

■ حَبْل النجاة

تكون في غمرة النسيان فيذكّرك به، تكون في حومة المعصية فيوقظك، تكون في وسط المستنقع فيطهّرك، تكون في داخل الجب فيدلّي إليك حبلًا . .

يهديك بحبّ يغمر فؤادك، أو بخوف يزعزع استقرارك، أو بمرض يذلّ كبرياءك، أو بحاجة ترغم أنفك، أو بفقر ينقض ظهرك، أو بخواء يعذّب روحك.

يعيدك إليه، إلىٰ طريق الأنوار، يجعلك من روّاد المسجد بعد أن كنت تنظر إليه من بعيد ولا تنالك هداياته من قريب، يعلّم يديك كيف تمسكان بالمصحف بعد سنين طويلة من الهجر والصدود، يرطّب لسانك بذكره بعد أن كنت تترنّم بأغانٍ تافهة!

تخرج من بيتك قاصدًا مسجدًا وفجأة تغيّر الطريق إلىٰ مسجد آخر، بعد الصلاة تسمع كلمة يلقيها أحد الدعاة تغيّر شيئًا كان مستقرًّا في قرارة نفسك! يغيّر طريقتك أو حتىٰ طريقك . .

والعبد صاحب الروح المرهفة يستنبط هدايات الله سبحانه، ويعلم أن الكون مربوب له سبحانه، وأن الله سبحانه قد يهديه بأي شيء في كونه، وقد يضلّه والعياذ بالله بأي شيء في كونه!

ولن يضل سبحانه إلا من أغلق قلبه عن الهدىٰ ودين الحق.

إذن: ضياع هذه الحياة إن لم تأتك الهداية من عنده . .

أتذكر مثال صحراء التيه آنفة الذكر، إن ضياعنا عن طريقه سبحانه، عن المسجد، عن الله أكبر، عن اللهم أنت السلام ومنك السلام، أعظم فظاعة من تيه الصحراء، وسنكون بذلك في غربة أقسىٰ من غربة الطائر الذي فقد سربه في فصل الشتاء، فقررت الثلوج أن تبتلع أحلامه المحلّقة!

اللهم ارزقنا هداية من عندك تنتشلنا من صحراء التيه، وتوصلنا إليك، وتدخلنا بها جنّة عرضها السماوات والأرض.

الغفور

الذنوب ستفسد عليك حياتك،

ستقهر روحك، ستجعل الماء ذا نكهة غير مستساغة،

والطعام غير هنيء، والليل وحشة، والنهار ملل ..

الـغـفـور

إذا كنت قد تعبت من ذنوبك وخطاياك، وشعرت أن شؤمها قد نغّص عليك حياتك، وأن ظلامًا وقتامة قد أطفأت في عينيك بهجة أيامك ولياليك، وأنّك ما عدت تستلذ بصلاتك، ودعائك، وعبادتك؛ فاعلم أنّ الوقت قد حان لتدلف إلىٰ عالم الأنس والمغفرة، متلمّسًا معاني الغفران والتجاوز في اسم الله «الغفور» . .

أنت الآن بحاجة إلىٰ أن تفهم معنىٰ المغفرة، وكيف أنّ ربّك غفور وغفّار، ومدىٰ حاجتك لهذه المغفرة في جميع أدوار حياتك . .

■ السجن

بلاء الروح بالذنب أعظم بكثير من بلاء الجسد بالمرض،روحك تأنّ تحت وطأة العصيان، نعم قد يكون جسدك استلذّ لحظة المعصية، ولكن روحك تجأر إلىٰ الله!

تخيّل أنّك في سجن ضيّق عرض كل جدار فيه متر واحد فقط، ما مقدار الاختناق الذي ستشعر به؟

الذنوب تجعل روحك في سجن شبيه بهذا السجن! إنّها تحيط بك ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ وتجعل روحك تختنق.

لو لم يكن هناك جنّة ولا نار، الذنوب وحدها جحيم، وحميم، وعذاب أليم!

فإذا علمنا أنّ من أسمائه سبحانه الغفور والغفّار والعفوّ وأن من صفاته أنّه يغفر الذنوب، تبدأ جدران ذلك السجن الضيّق تتصدّع.

■ هل تعلم؟

بالله قل: أستغفر الله . .

لا تقلها، فقط تأمّل فيها: أستغفر الله . .

هل هناك ما هو أجمل من هذه الكلمة التي إن قلتها من قلبك تتناثر جميع الوساوس والهواجس والمخاوف؟

هل تعلم أن كل مصيبة من مرض أو هم أو حزن أو ألم هي بسبب معاصيك؟

اقرأ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾.

لقد أصابتنا الغيبة والكذب والغش والحسد والاحتقار والعقوق والنظر إلىٰ الحرام وتأخير الواجبات بقدر كبير من الآلام والهموم والأوجاع.

نذهب لنسكب ماء وجوهنا بحثا عمّن يقرضنا شيئًا من المال، ولعلّ تلك الحاجة إلىٰ المال سببها ذنب اقترفناه، ولو قلنا: أستغفر الله بانكسار، لما احتجنا أن ننكسر لدىٰ خلق الله!

نبحث عن راق لنخبره عن الضيقة التي نشعر بها، والخوف الذي نغّص حياتنا، والتغيّرات النفسيّة التي نشعر بها، ولعل ما أصابنا كان بسبب معصية ارتكبناها، ولو قلنا: أستغفر الله بقلب حيّ، بقلب تائب منيب ما احتجنا إلىٰ كل ذلك!

■ وغَدَراتي؟

لم تظهر لي صفة المغفرة ماثلة وبارزة كما ظهرت لي وأنا أقلّب أوراق السيرة النبويّة:

عمر بن الخطاب يفتن المسلمين عن دينهم، يمسك السوط بيده القوية ويلهب به ظهر جاريته ثم لما يتعب ينزل السوط ويقول: ما تركتك إلا ملالة!

كان المسلمون يعتقدون أن إسلام حمار الخطاب أقرب إلىٰ

المعقول من إسلام عمر! لشدّة عداوته للإسلام، وكرهه لهذا الدين، ثم يفتح له الغفور أبواب التوبة ليصبح: عمر الفاروق!

والسياط التي كان يحرق بها ظهور عبيده وإمائه؟ أين ذهبت؟ لقد غفرها الله!

خالد بن الوليد يصعد علىٰ جبل الرماة في غزوة أحد ويُقتل بسببه عبد الله بن جبير وصحبه الذين كانوا علىٰ جبل الرماة ﵃، بل يكون السبب في أعظم هزيمة يُمنىٰ بها الجيش الإسلامي بقيادة النبي ﷺ، ويكون السبب في أن يُجرح نبي الله ويشجّ رأسه وتكسر رباعيّته وتدخل حِلَق المِغفَر في وجهه الشريف.

يكون السبب في أن يدمىٰ وجه النبي ﷺ وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَىٰ قَوْمٍ دَمَّوا وَجْهَ رَسُولِهِ**»[1] ولكن الله ينزل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾! ويكون خالد ممن تاب عليهم وغفر لهم!!

يسلم، فيغفر له الغفور، يمسح سبحانه كل تلك الطوام . .

ويتحوّل من السبب الأهم في هزيمة المسلمين في غزوة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٠٩-٤/ ٣٦٩).

أحد إلىٰ: سيف الله المسلول!

وتلك الدماء الزكية التي سفكها؟ وحلق المغفر؟ والدماء النبويّة الطاهرة؟ كل ذلك غفره الله!

رجل يأتي إلىٰ رسول الله ﷺ، يأنّ قلبه مما اقترفه من آثام، فيقول: أَرَأَيْتَ رَجُلا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، فَلَمْ يَتْرِكْ مِنْهَا شَيْئًا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرِكْ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً إِلَّا أَتَاهَا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ رَسُولُ الرَّحْمَةِ: **فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟** قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: **نَعَمْ، تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَات كُلَّهِنَّ!** قَالَ: وَغَدَرَاتِي؟ وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ: **وَغَدَرَاتك وَفَجَرَاتك!!**[1]

■ هل نسيت؟

لماذا تعتقد أن ذنبك أعظم شيء في الوجود؟ هل نسيت أنّه الغفور الودود؟

هل نسيت أنّه يفرح بتوبتك؟

رأىٰ الصحابة امرأة مذعورة في السبي تبحث عن ولدها، فلمّا رأته ضمّته وقبّلته حبا وشوقا وخوفا، فتعجّب الصحابة من

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٢٣٥-٧/ ٣١٤).

هذا الحب وهذا الفرح، فقال النبي ﷺ: «**اللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»[1]!

ما الذي تنتظره؟

قل أستغفر الله الآن . .

قلها بقلبك وروحك ولسانك، حتىٰ ذنوبك التي تريد أن تقنعك أنّ المغفرة مستحيلة عليها اجعلها تقول: أستغفر الله، رغمًا عنها، اصرخ بأستغفر الله في وجدانك، وأقسم من خلال صرختك تلك أنّ الغفور سيغفر لك، ليس لأنّك صرخت، بل لأنّه الغفور الودود.

أبو سفيان بن حرب، صفوان بن أميّة، عكرمة بن أبي جهل، عمرو بن العاص وغيرهم كثير، كانت ذنوبهم: شركًا بالله، ومحاربة للدين، وقتلًا للصحابة، ثم يغمرهم الغفور الرحيم بمغفرته ليكونوا صحابة! أتدري ماذا تعني كلمة (صحابة)؟ الصحابة تعني أفضل البشر بعد الأنبياء!

انظر ماذا فعلت المغفرة بعكرمة أو بصفوان أو بغيرهما؟

لقد حوّلته من: قاتل للصحابة؟ إلىٰ: صحابي جليل!

الإحساس بالذنوب وهي تحيط بك يجعل روحك تأنّ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٤٤-٤/٢١٠٣).

وأفكارك تميل إلىٰ اللون الأسود، وكلماتك متوتّرة جدّا، فإذا ما اقتربتْ منها: أستغفر الله احترق الأنين والسواد والتوتّر.

■ طوبىٰ ..

يغفر سبحانه بـ: أستغفر الله ..

ويغفر سبحانه بالتوبة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ويغفر سبحانه بالحسنات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

ويغفر بالبلاء: «**مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ فِيْ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ اللَّهَ تَعَالَىٰ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»[١] ..

أتعلم ما الذي ينبغي أن تكثر منه في هذه الحياة؟ ألاّ تملّ من ترداده؟ إنّه الاستغفار!! قال نبيك عليه الصلاة والسلام: «**طُوبَىٰ لِمَنْ وَجَدَ فِي كِتَابِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا**»[٢] ..

ستفرح فرحا خالدا بالأعداد الكبيرة لأستغفر الله في صحيفتك ..

ستصرخ بأعلىٰ صوت ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ ..

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٩٩-٤/ ٦٠٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٨١٨-٢/ ١٢٥٤).

ستجد في عرصات يوم القيامة أصدقاءك فتفتح لهم كتابك المليء بالاستغفار وتقول: انظروا، لقد استجاب الله لهذه الاستغفارات الكثيرة فغفر لي!

لذلك فقد شُرع الاستغفار ليس بعد الذنب فقط! بل وبعد الطاعة!!

ألست تقول بعد الصلاة: أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله؟حتىٰ طاعاتك مليئة بالنقص الذي لا يرتقه إلا الاستغفار.

■ لا تقنطوا ..

الغفور سمّىٰ نفسه بالغفور لأنّك بلا مغفرة ستحترق، ستلتهمك الغصص، ستشعر بالاختناق الحقيقي، ستدمن البكاء.

إذا ظننت أن ذنبك أعظم، وأن الشيخ الذي استفتيته في ذنبك لم يتصوّر بعدُ التفاصيل السوداء لتلك الخطيئة العظيمة، وأنّه أجابك علىٰ غير سؤالك، اسمع لربّك الذي يعلم كل ذنب سيقترفه عباده من لدن آدم وحتىٰ قيام الساعة، يعلم بتفاصيل تلك الذنوب وخطواتها وشناعة أمرها: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ..

هل انتهت الوساوس الآن؟ الذي قال هذا الكلام يعلم عندما أنزل القرآن أنّك في يوم كذا ستذنب ذنب كذا ومع ذلك قال لك: ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وذنبك لا شك من هذه الذنوب التي ليست أكبر من غفران الله ولا أعظم من رحمته سبحانه.

المهم هو أن تسبق (أستغفر الله) بالإقلاع عن الذنب، أن تتوقّف: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

كيف تقول: اغفر لي خطئي، وأنت عاكف على الخطأ؟ كيف تُمسح معصيتك ثم تعود لكتابتها من جديد؟ توقّف .. لتصبح (أستغفر الله) صادقة، تستحق أن تُفتح لها أبواب السماء.

■ أعظم مشيئة!

الله سبحانه شاء لك أشياء كثيرة:

شاء وجودك فوُجدت، وشاء صحّتك فصرت صحيحا معافىٰ، وشاءك عاقلا وها أنت تعقل ما تقرأ وتسمع، ولكن أتعلم ما هي أعظم مشيئة قد يمنّ الله بها عليك؟

-أن يغفر لك!!

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾!

ما أعظمها من مشيئة هذه التي تجعلك مؤهلًا لدخول الجنّة برحمة الرحيم سبحانه!

المغفور لهم تنزل بهم الأمراض كغيرهم، ولكنّها لا تسلب ابتساماتهم ..

المغفور لهم تصيبهم الضوائق المالية كغيرهم، ولكنّها لا تنكّس رؤوسهم ..

المغفور لهم تدمع عيونهم، ولكنّهم لا ييأسون من رَوح الله أبدا ..

ثم دع الهموم والأوجاع والأمراض جانبا:

المغفور لهم ينامون بالليل في طمأنينة، لأن أغرب توقّع هو أن يموتوا؟ وماذا لو ماتوا؟ إنّهم بلا ذنوب تجعل الموت شبحا مرعبًا!

بالله اقرأ، بل استشعر:

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾

ألست مشتاقا لأن تجد الله غفورا رحيما؟ استغفره إذن!!

■ الأجمل ..

الغفور عَلِم أن الذنوب ستفسد عليك حياتك، ستقهر روحك، ستجعل الماء ذا نكهة غير مستساغة، والطعام غير هنيء، والليل وحشة، والنهار ملل، والأقارب جحيم، والأصدقاء شكوك، وتفاصيل الحياة وهم، والنوم اختناق، والوحدة بكاء، فقال لك: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ أليس هذا أجمل بحالهم؟ ألم يملّوا الكُرُبات التي بعضها فوق بعض؟ ألم يشتاقوا للابتسام الذي يخرج من القلب؟ إذن لماذا لا يستغفرونه؟

■ لا تندهش!

والغفور يغفر دائمًا، ويغفر بكرم، ويغفر ما لا يغفره البشر، ويغفر بإدهاش!

يغفر دائمًا:

فيغفر ما بين الصلاة والصلاة وما بين العمرة والعمرة وما بين رمضان ورمضان وما بين الحج والحج إذا ما اجتُنبت الكبائر!

فصارت بذلك حياة العبد كلها ما بين مغفرة ومغفرة، وعفو

وعفو، وتجاوز وتجاوز!

تخيّل: تصلّي الفجر، ثم تذهب إلىٰ عملك فتندّ منك تجاوزات وذنوب -دون الكبائر- ثم تحسن الوضوء لصلاة الظهر وتصلي صلاة تامّة فما تقول: السلام عليكم ورحمة الله إلا وقد انغسلتَ من ذنوبك كلّها، وهكذا صلاة بعد صلاة! ماذا كنّا سنفعل لو لم يكن ربّنا غفورًا؟

ويغفر بكرم:

فيغفر كل الذنوب بصيام يوم واحد في السنة!

ويغفر كل الذنوب بأن تقول: سبحان الله وبحمده .. مئة مرّة! أي في دقيقتين تتساقط عنك ذنوب سبعين سنة! أفي الكرم مثل هذا؟

ويغفر ما لا يغفره البشر:

فيغفر ذنوب بغيّ كل حياتها ذنوب ومعاصٍ بأن سقت كلبًا ماء!

ويغفر بإدهاش:

فمن ذلك ما حصل لمن حضر غزوة بدر فقد اطّلع عليهم ربّهم وقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم!

كل الذنوب التي عملوها أو سيعملونها: مغفورة!

وكان ممن اطّلع الله عليه في غزوة بدر حارثة بن سراقة، غلام خرج معهم مساعدًا لا مقاتلًا، فكان في المعركة من النّظّارة الذين يشاهدون المعركة من بعيد، فقام إلىٰ حوض الماء ليشرب فأتاه سهم غَرْب (طائش) أصاب نحره فقضىٰ عليه، فلما عاد النبي ﷺ إلىٰ المدينة استقبلته أم حارثة فقالت له: يَا نَبِيَّ اللهِ أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَىٰ**»[1].

قال ابن كثير: وفي هذا تنبيه عظيم علىٰ فضل أهل بدر، فإن هذا الذي لم يكن في بُحيحة القتال، ولا في حومة الوغىٰ، بل كان من النّظّارة من بعيد، وإنما أصابه سهم غرب، وهو يشرب من الحوض، ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس الأعلىٰ ... فما ظنّك بمن كان واقفًا في نحر العدو».

■ **ابدأ ..**

ابدأ عهدا جديدا مع اسم الغفور، افرح لأنّه يغفر الذنوب، وسارع في الاستغفار، وطلب هذه المغفرة باتباع أوامره واجتناب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٠٩-٤/ ٢٠).

نواهيه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

اللهم اغفر ذنوبنا كلها، دقها وجلّها، أولها وآخرها، واجعلنا ممن يجدون في صحائفهم استغفارا كثيرا.

القريب

قال لي صديقي مرّة قبل أن يخرج من زيارتي في غرفتي بإسكان الجامعة: اكتب لي في هذه الورقة كلمة لأقرأها وأنا عائد إلىٰ غرفتي، فكتبت له: إنّه يراك الآن . .

أخبرني فيها بعد أنّه فُجع بها!!

القـريـب

أتشعر بالوحشة؟ هل خذلك صديقك الحميم؟ هل تحسّ أن بينك وبين أعز الناس حجابًا مستورًا، فلم يعد يفهمك كما كان من ذي قبل؟ هل روحك تأنّ شوقًا إلىٰ حبيب تبثّ إليه لواعجها؟

ما رأيك أن تدع هذا الحبيب، وذلك الصديق، وتنصرف إلىٰ الذي لا يجفو من أتاه مقتربًا؟

الله الذي هو أقرب إليك من حبل الوريد، والذي ستغدو حياتك أنسًا وسعادة معه، له اسم عظيم، موغل في الجمال، مكلل بالبهاء، اسم «القريب» . . فلنتعرّف علىٰ معاني هذا الاسم لنستشعر قربه منا، ولنتذوّق طعم مناجاته في ليالي الوحشة . .

■ يا الله!

في الوقت الذي يريدك أن تعلم أنّه علىٰ العرش استوىٰ، يريدك أن تتيقّن أنّه أقرب إليك من حبل الوريد!

يسمع كلماتك، ويرىٰ أفعالك، ولا تخفىٰ عليه منك خافية.

دخل الرسول ﷺ المسجد فإذا بصحابته الكرام يدعون ربّهم بأصوات جهيرة مرتفعة، فقال: «**ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا**»[1].

بمجرّد أن ينتهي العبد من الدعاء إذ بالإجابة تلوح، لأنّه قريب بدرجة لا يتصوّرها العقل!

تضيع دابّة أحدهم فيمشي مبهوتًا فيراه إبراهيم بن أدهم فيسأله فيقول: ضاعت دابّتي، فيقف إبراهيم ويقول: يا الله، لن أمشي خطوة حتىٰ تعيد لهذا دابّته، فإذا بها تظهر من منحنىٰ الطريق!

■ من أجلك ..

يخبرني صاحبي أنّه دخل المسجد وما زال أثر ماء الوضوء في أذنيه فاتّجه إلىٰ الصف الأول مقابل جهاز التكييف مما جعل الهواء البارد يدخل إلىٰ أذنيه علىٰ أثر الماء، بعد ساعة شعر ببداية ألم في أذنه، لم يفتح شفتيه وإنما قال بقلبه: يا الله، كان ذلك من أجلك، فإذا بالألم يرتفع هكذا بدون مقدّمات وبلا تدرّج!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٠٥-٥/ ١٣٣)، ومسلم في صحيحه (٢٧٠٤-٤/ ٢٠٧٦).

أيّ قرب هذا الذي يعلم معه ما تحدّث به نفسك دون أن تحرّك به شفتيك؟

وأقرب ما تكون إليه وأنت ساجد، تتمتم بـ(سبحان ربي الأعلىٰ)، فإذا بالسماوات تنفتح لتمتمتك، وإذا بالجبار يسمعك!

لا تتوهم أنّه بعيد، أو أنّه تخفىٰ عليه منك خافية ..

يخرج رسول الله ﷺ في جوف الليل، ويذهب ليطرق باب أُبيّ بن كعب، فيخرج أُبي، فإذا برسول الله يخبره: أمرني الله أن أقرأ عليك الفاتحة، يقول أُبيّ بذهول: وسمّاني؟ فيقول نعم، فيبكي أُبيّ![1]

■ دبيب النملة ..

قريب من جميع خلقه، يراهم ويحميهم ..

كيف يكون قيّوما علىٰ خلقه لو لم يكن قريبا منهم؟

كيف يكون ربّا، إلا وهو قريب؟

وقربه ﷻ قرب علم وقرب سمع وقرب بصر وقرب إحاطة، لا قرب ذات، لأنّ ذاته العليّة منزّهة عن مثل هذا القرب.

---

(١) أخرج القصة البخاري في صحيحه (٤٩٦٠-٦/ ١٧٥)، ومسلم في صحيحه (٧٩٩-١/ ٥٥٠).

من قربه أنّه ينزل كما صحّ عن نبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام في الثلث الأخير من الليل إلىٰ السماء الدنيا فيقول: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ، هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبه، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِر لَهُ»[1]

ومن قربه أنّه: يسمع دبيب النملة السوداء علىٰ الصفاة الصمّاء، في الليلة الظلماء.

يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾

تخيّل عدد الأشجار، ثم عدد أوراقها، تخيّلها وهي تتناثر في فصل الخريف، يعلمها كلّها: يعلم عددها وأشكالها وأنواعها وكل شيء يخصّها!

تأتي امرأة تجادل في زوجها، وعائشة رضي الله عنها في طرف البيت تقول إنها تسمع كلمة وتغيب عنها كلمة، وبعد ذلك الجدل ينزل جبريل علىٰ محمد ﷺ أن ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

يا له من قرب عجيب، وعلم عظيم، وسمع محيط، وبصر نافذ . .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٥٨-١/ ٥٢٢).

■ يراك الآن!

مُدّ يدك الآن، أمددتها؟ لقد رآها! يجب أن تؤمن بذلك!

قال لي صديقي مرّة قبل أن يخرج من زيارتي في غرفتي بإسكان الجامعة: اكتب لي في هذه الورقة كلمة لأقرأها وأنا عائد إلىٰ غرفتي، فكتبت له: إنّه يراك الآن، أخبرني فيما بعد أنّه فُجع بها!!

قربه يخيفك، يجب أن يخيفك ..

وقربه يؤنسك، يجب أن يؤنسك ..

وقربه يدفئك، يجب أن يدفئك ..

وقربه يجعلك شجاعًا شامخًا بطلًا ..

استمع إليه وهو يهدّئ من رَوع موسىٰ عليه السلام عندما أعلن خوفه من الذهاب إلىٰ فرعون فقال له: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ هذا يكفي، كونه معهما أكبر حماية لهما ..

لأنه معهما يجب ألا يخافا من فرعون، يجب أن يكونا شجاعين بطلين شامخين.

ومما قُرر في كتب العقيدة أن لله معيّتين: معيّةً خاصة بأهل ولايته، وهي معيّة محبّة ونصرة وتوفيق، ومعيّة عامّة لجميع خلقه، وهي معيّة علم وسمع وبصر وإحاطة.

فكانت معيّته لموسىٰ وهارون معيّة خاصّة تقتضي النصرة والتوفيق، فكيف يخافان وقد وعدهما الله بنصرته وتوفيقه لهما؟

وكل من قام بما قام به موسىٰ وهارون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ علم وهدىٰ ستكون له معيّة من الله تعالىٰ بحسب الإيمان الذي في قلبه وبحسب امتثاله لأمر ربه، لذلك فإن كل آمر بالحق ناهٍ عن الباطل تجد فيه من القوّة والشجاعة والثبات والتوفيق ما يجعلك تكاد تجزم أن المعيّة الخاصّة تحوطه وتؤيّده.

■ **ابتسم ..**

ومن أجلّ الآيات وأكثرها أنسًا في هذا الباب قول الحق: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فما هو مقدار الأنس الذي ستشعر به وأنت تقول: الله أكبر مصليًا لله .. إذا أخبرك سبحانه أن رؤية خاصّة ستستحقّها بهذا العمل، لأنه سبحانه يرىٰ كل الخلق، الذي يقوم والذي لا يقوم، فدل هذا علىٰ أنّ رؤية القائم لله في صلاته رؤية خاصّة لا عامّة: رؤية فيها الحب والقبول والإجابة والمغفرة ..

قل مثل ذلك عن الحديث الذي في البخاري، قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ**

يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»[1] والأَذَن الاستماع . .

يقول ابن كثير: «ومعناه أن الله تعالىٰ ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك، وهو ﷻ يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة ﵂: «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات» ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ».

إذا صفعتك المخاوف فابتسم، وتذكّر قربه منك سبحانه . . فكل الأشياء التي تخاف منها، ليست أقرب إليك منه!

وإذا التأمت حولك الخطوب فتفاءل!وشتتها بفكرة أنّه أقرب إليك من حبل الوريد!

مما يذكره بعض الوعّاظ قديمًا: أن أحدهم كان مسافرًا في الصحراء فإذا بقاطع طريق حاملا سيفه يريد قتله، قال له: خذ مالي، فقال: لا، أريد أن أقتلك ثم آخذ مالك،فاستأذنه في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٨٢-١٤١/٩)، ومسلم في صحيحه (٧٩٢- ٥٤٥/١).

ركعتين فأذِن له: قال نسيت كل القرآن ولم أذكر إلا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ رددتها وما أنهيت الصلاة إلا وفارس لا أدري من أين ظهر يضرب ذلك الرجل ضربة بسيفه يطير منها رأسه!

■ سبحانك!

إنّه القريب، فقط حرّك شفتيك بذكره، تتفتّح أبواب السماوات لصوتك.

كان يونس عليه السلام في بطن الحوت ينادي ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فكان الصوت الضعيف المنطلق من الظلمات الثلاث يخترق أجواز الفضاء لتسمعه ملائكة السماوات فتقول للرب سبحانه: «صوت معروف، من مكان غير معروف»!

يقول الله في الحديث القدسي: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»[1] لأنّه قريب .. فقط قل يا الله، يكون الرد بأن يَذكُرَ اسمك!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥-٩/ ١٢١)، ومسلم في صحيحه (٢٦٧٥-٤/ ٢٠٦١).

ما أجلّ أن تتخيّل أن ملك الملوك هذه اللحظة يقول اسمك! يقول: عبدي فلان بن فلان ذكرني!

الدنيا كلّها تافهة، لا تساوي مثل هذا التخيّل ..

وقربه هذا يزيد، فبالتوبة والإنابة والطاعات تزيد قربًا منه يقول في الحديث القدسي: «**إِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا**»[1] فكل محاولة اقتراب منك إليه بالطاعة يعقبها اقتراب منه إليك بالقَبول والأفضال والنعم والعطايا والهبات.

■ وصلت إليه ..

ومن معاني قربه أنّه يريك في كل شيء من حولك معنىٰ يذكّرك به:

فترىٰ حكمته في دقّة تركيب مخلوقاته ..

وترىٰ قدرته في رفع سماواته بلا عمد ..

وترىٰ رحمته في إنزال المطر وإنبات الشجر ..

وترىٰ عظمته في شموخ الجبال ..

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥-٩/١٢١)، ومسلم في صحيحه (٢٦٧٥-٤/٢٠٦١).

وترىٰ عذابه في البراكين والزلازل والكوارث . .

يقول تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾

إذا أبصرت شيئا بعينيك فبصرك يذكرك بالبصير سبحانه . .

وإذا سمعت همسا في دجىٰ الليالي فسمعك يذكرك بالسميع سبحانه . .

وإذا علمت شيئا من خفي العلم فعلمك يذكرك بالعليم سبحانه . .

وفي كل شيء له آية
تدلّ علىٰ أنّه الواحد

ذات مرّة كنت جالسًا مع مجموعة من الأبناء أحدثهم عن التفكر في خلق الله، فقال أحدهم: «إذا تفكّرتَ في مخلوقاته وصلتَ إليه»!! توقفت مندهشًا، شعرت أن هذا الطفل يفهم هذه المعاني أكثر منّا، وأنّه ينبغي أن أستمع إليه أكثر من أن يستمع إليّ!

قريب لا تحتاج حتىٰ تصل إليه إلاّ أن يخطر ببالك، أن تشعر بقربه، أن تحسّ بأنّه يراك، ثم تقول: يا الله . .

■ **إذا سألوك ..**

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾

أي شخص يسألك عن الله فأوّل شيء تصف ربّك به هو أنّه قريب منه! النفوس مفطورة علىٰ عدم استعدادها لعبادة رب بعيد، لا يسمع دعاءها، ولا يرىٰ حاجاتها، فمن أهم الصفات التي تبتدر بها الذي يريد التعرّف إلىٰ الله أن تخبره أن ربّه «قريب» هكذا علّمك سبحانه أن تخبر عنه!

وهذا القرب علاوة علىٰ أنه يجعلك تحبّه، وتأنس به، وتخشاه، إلا أنه فوق ذلك يجعلك تدمن علىٰ استغفاره والتوبة إليه، فالقريب من جهة يستحق أن يُستغفر ويتاب إليه لأنّه بقربه اطلع علىٰ كل غدراتك وفجراتك، ومن جهة أخرىٰ فهو قريب قربًا يجعل استغفارك وتوبتك ناجعة، فلن يغفر لك إلا من سمع استغفارك ولن يتوب عليك إلا من علم توبتك، فهو القريب المجيب، وبعد هذا تأمل قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

ومن نوادر التعابير التي تصيبك بالحياء من القريب سبحانه قول أحدهم: «ألا يستحق أن تحبّه؟ في اللحظة التي تغلق الباب علىٰ نفسك حتىٰ تعصيَه، يُدخل لك الأكسجين من تحت الباب حتىٰ لا تموت»!

وهذا القرب يقابله محاولة تقرّب من العبد إليه سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إنّه مضمار المسارعة، والمسابقة، والتي لا يكون قصارىٰ رغبة العبد فيه أن يكون قريبًا بل أن يكون الأقرب!

■ من بين الأدخنة ..

وفي أجواء المحن التي تعيشها الأمة، ومن بين أدخنة الحروب المهلكة التي تمسّ أفئدة المؤمنين باللأواء، يحتاج المؤمن هناك إلىٰ ثلاث مستويات معرفية متعلّقة باسم القريب:

الأول: معرفة قربه سبحانه إيمانًا ويقينًا، ليريح نفسه من عناء الصراخ والاستنجاد بالبشر، فرب البشر قريب شهيد مطّلع، فيجد في القرآن آية تقول له بكل وضوح: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾، فيلقي عند أعتابها حُرقات روحه المكلومة، وكل ما سبق يصب في خانة هذا المستوىٰ المهم.

الثاني: ومن بين لهيب القهر، ورؤية تفاصيل الشتات، وتهدّم البيوت، وموت الأنفس، وهلاك الثمرات، يريد رحمة، يبحث عن رحمة، يتمنىٰ رحمة تنهي عذابات خذلان الإخوة، وطعنات الغدر المتوالية،فيقف عند قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يا الله! إذن ليس بين ذلك

المجاهد المغوار الذي نذر روحه للجبار إلا ستار شفيف تلوح من خلفه مخايل الإحسان، فقط يحتاج أن يجاهد في الأرض بطريقة ملائكية يشعر فيها أنّه يرىٰ الله! فإن لم يكن يرىٰ الله فإن الله يراه، فلا يطلق رصاصة إلا ولديه جواب عن لماذا وكيف ومتىٰ أطلقها! ولا يزال العبد ينتقل من إحسان إلىٰ إحسان، وتكون في المقابل رحمة الله أقرب إليه من غيره، حتىٰ تغشاه الرحمة من كل مكان، تنتزعه من أدخنة الموت إلىٰ سحائب الرضا.

الثالث: وتطول الأيام، وتتوالىٰ الزفرات، وتشتد البلاءات، ويُحكم الحصار من كل مكان، وعند ذلك تطلّ روح المجاهد علىٰ آية ثالثة يقول فيها الحق: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فكما أنّه قريب سبحانه من عباده، وكما أن رحمته أيضًا قريبة من المحسنين منهم، يأتي النصر القريب من جند الله ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ فيربط الله بذلك علىٰ قلوب أضناها الانتظار، وأرهقها الاصطبار، فينتظرون هذا النصر القريب من ليل أو نهار.

■ **الله ..**

اللـه .. واضـربـت دمـوعـي خـشـيـة
ارحـم أنـيـن الـحـبّ فـي دمَـعـاتـي

اللــه .. والتـهـب الـفـؤاد حـرائـقًـا

ارحـم لـهـيـب الـحـبّ فـي نـبَـضـاتـي

اللـه .. وانـدفـعـت حـروفـي لـهـفـة

ارحـم شـعـور الـحـبّ فـي أبـيـاتـي ..

وبعد هذه السياحة التفكرية في اسم الله القريب، أسأل الله أن يجعلنا ممن يستحضر قربه، ويعمل وفق ما يمليه هذا الاسم الأعظم من معاني الذل والإخبات والمراقبة والخشية، وطلب الرحمة والنصرة منه وحده ..

اللهم يا قريبا ممن دعاك ورجاك، اكتب لنا قُربًا من رحمتك وهدايتك، قُربًا تؤنسنا به، وتذهب عن أرواحنا وعثاءها، وتدخلنا به الجنّة.

الخاتمة

وبعد ..

فقد عرفتَ شيئا عن بعض أسمائه ..

فعليك أن تتزوّد بمعرفة المزيد عنها وعن غيرها ..

وأن تجعلها نبراس حياتك، وهداية قلبك، ونور أيامك ..

لتحوز علىٰ سعادة الدنيا والآخرة ..

ولي رجاء: إن خفف هذا الكتاب عنك ألمًا، أو رسم علىٰ ثغرك ابتسامة، أو غيّر حالك إلىٰ الأحسن فلا تنس كاتبه، ومن أفاده، ومن أعانه، ووالديهم وجميع المسلمين من دعوة بظهر الغيب ..

وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد ..

علي جابر الفيفي

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهـداء	٥
مقدمة	٧
الصَّـمـد	١١
في ظلال الصّمَدَيّة	١٣
أمواج	١٥
أفكار الزيف	١٦
الكواكب	١٧
وتنساه	١٨
اصمد إليه	٢٠
البوصلة	٢١
فرّغ قلبك من غيره	٢٢
خطوات	٢٤
شموخ	٢٥
حقيقة	٢٦

الموضوع	الصفحة

الحفيظ ٢٩

أيها القلب اطمئنّ ٣١

طرقات الزيغ! ٣٣

وننسىٰ الله! ٣٤

المعقّبات ٣٦

ما بين القوسين ٣٧

قارورة ٣٨

أعظم وأكثر وأكبر ٤٠

يدافع عنك ٤١

وديان السباع ٤٣

أنا الفقير ٤٥

يا غلام ٤٦

اختناق ٤٨

اللَّطيف ٥١

خفيّ الألطاف ٥٣

نسيم اللطف ٥٥

الصخرة ٥٧

الخفايا والخبايا ٥٨

الأحلام البعيدة ٦٠

الموضوع	الصفحة

لطف اللحظة الحاسمة ٦٢

الشَّافي ٦٥

لا مرض بعد اليوم ٦٧

يشفيك بلا سبب! ٧٠

لا تدري! ٧٢

وعاد النور ٧٣

عُدْ إليه ٧٤

موعد مسبق ٧٦

ضع نقطة ٧٨

الرضا ٨٠

أنهار الذنوب ٨٢

الوكيل ٨٥

فاتخذه وكيلا ٨٧

خطّة سنويّة ٨٩

انكسر له ٩١

الدموع المبتسمة! ٩٣

أكسجين الحياة ٩٤

الحياة جحيم بدونه ٩٥

حسبي الله ٩٦

الموضوع	الصفحة

سبب مقنعَ ٩٨
احذر ٩٩
أشياء تهددك ١٠١
الشّكور ١٠٣
إذا أعطاك أدهشك ١٠٦
مسألة حسابيّة ١٠٧
واذكر في الكتاب ١٠٨
مثقال الذرّة ١١٠
أَنفق أُنفق عليك ١١٣
وافعلوا الخير ١١٤
اسكت ١١٦
إلىٰ أين؟ ١١٧
انتشال ١١٨
الجبّار ١٢١
قلبك المهشّم كيف تهشّم؟ ١٢٣
واجبرني ١٢٥
واحلل عقدة من لساني ١٢٦
يحبك مبتسمًا ١٢٧
العربة ١٢٨

الموضوع	الصفحة

٨٣ .... ١٣٠
حجرة الخادم ١٣١
الحلم والذكرىٰ ١٣٢
فنجان قهوة! ١٣٤
كن ساجدًا ١٣٥
الهادي ١٣٧
دفء ١٣٩
ليست صُدفة! ١٤١
لا ولا ١٤٢
قبس من نور ١٤٤
بوصلة ضائعة ١٤٥
ثم هدىٰ ١٤٧
المستنقع ١٤٨
ورقة! ١٤٩
حَبْل النجاة ١٥٠
الغفور ١٥٣
السجن ١٥٥
هل تعلم؟ ١٥٦
وغَدَراتي؟ ١٥٧

الموضوع	الصفحة

هل نسيت؟ ١٥٩

طوبىٰ ١٦١

لا تقنطوا ١٦٢

أعظم مشيئة! ١٦٣

الأجمل ١٦٥

لا تندهش! ١٦٥

ابدأ ١٦٧

القريب ١٦٩

يا الله! ١٧١

من أجلك ١٧٢

دبيب النملة ١٧٣

يراك الآن! ١٧٥

ابتسم ١٧٦

سبحانك! ١٧٨

وصلت إليه ١٧٩

إذا سألوك ١٨١

من بين الأدخنة ١٨٢

الله ١٨٣

الخاتمة ١٨٥